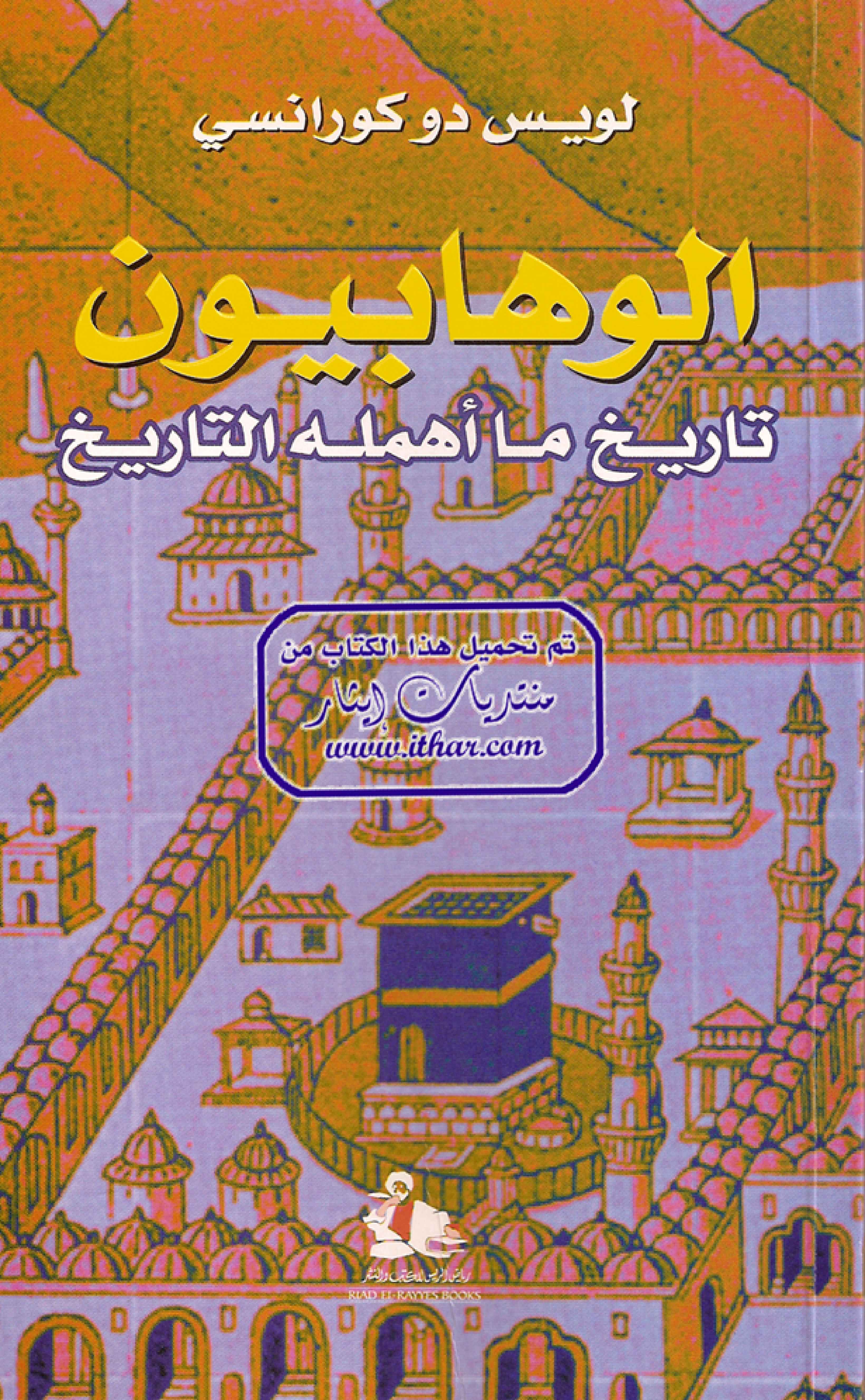

لويس دو كورانسي
الوهابيون
تاريخ ما أهمله التاريخ
تم تحميل هذا الكتاب من
منتديات إيثار
www.ithar.com
RIAD EL-RAYYES BOOKS

لويـس دو كورانسـي

الوهابيـون

تاريـخ مـا أهملـه التاريـخ

ترجمـة: مجموعـة من الباحثيـن



المحتويات

المقدمة

لم يعرف الناس عن الوهابيين حتى بداية القرن التاسع عشر إلا ما كتبه المسيو نيبور، الذي أقام مدة قصيرة في نجد عندما كان محمد بن عبد الوهاب على رأس تلك الجماعة. ولفت عموم الأنظار إليهم استيلاؤهم على مكة. فأرسلنا إلى باريس في ذلك الحين مقالاً موجزاً لتاريخهم نشر في جريدة «لومونيتور» في ٩ بروميير من عام ١٣ الموافق ٣١ تشرين الأول ١٨٠٤، ونقلته بعد ذلك جريدة «فرانكفورت» وغيرها من النشرات الدورية. وكان ذلك العرض التاريخي الموجز يتضمن ثلاثة فصول هي: أصل الوهابيين، قصة الشيخ محمد ــ وابن سعود، الاستيلاء على مكة ووفاة عبد العزيز، وكذلك بعض التفاصيل عن حركة الوهابيين وعاداتهم.

والمقال المذكور هو الوحيد الذي نشر في فرنسا وكان يحوي بعض التفاصيل عن تاريخ هؤلاء القوم لغاية ١٨٠٩. وفي مجرى تلك السنة نشر علاّمة من أعضاء المجمع العلمي، اشتهر بتفوقه وبثقافته الواسعة، معلومات أرسلت له عن الوهابيين. ونحيل القارئ على الكتاب الذي نشرت فيه هذه المعلومات للتزود بالتفاصيل عن المؤلف وعن الاهتمام الذي أثاره كتابه في المحافل العلمية.

ولدى قراءتنا للمعلومات وجدنا فيها بكثير من السرور كل ما ورد في جريدة «لومونيتور». ولم تكن الوقائع هي نفسها في المقالين فحسب، بل وجدنا كذلك نفس العبارات والجمل والتبويب. وكان التشابه واضحاً لدرجة أن أحد أعضاء المجمع العلمي المعروف بأبحاثه الجغرافية القديمة والحديثة والذي هو موضع احترام جميع الرحالة لما يلاقونه لديه من ترحاب ومساعدة، لم يشكَّ في أن المعلومات المذكورة هي نفس محتويات الموجز التاريخي، الذي نشر في «لومونيتور» سابقاً. ولا شكوى لنا إطلاقاً على هذا التشابه، إنما نذكره لأننا نعتقد باحتوائه أفضل برهان عى صحة التفاصيل التي جمعناها في ذلك الوقت، عن أصل الوهابيين وأول انتصاراتهم.

والمعلومات التي نشرت في عام ١٨٠٩، مثلها مثل الموجز التاريخي المنشور في «لومونيتور»، تحكي قصة الوهابيين منذ بدايتها حتى وفاة عبد العزيز. وهذه الحقبة

من تاريخهم هي موضوع الفصول الخمسة الأولى من كتابنا هذا. على أننا أضفنا إلى هذه الفصول تفاصيل عديدة عن أطباع الوهابيين وحركتهم ومقارنة هذه الحركة مع الديانة التي يدّعون إصلاحها. كما اعتقدنا أنه من الضروري بيان الأسباب الأساسية للتذمر المنتشر في جميع مقاطعات آسيا الصغرى الخاضعة لحكم العثمانيين، هذا التذمر الذي كان له الأثر المباشر في نجاح الدعوة الوهابية. وأعطينا أخيراً زيادة في التفاصيل لدى سرد الوقائع وخاصة ما يتعلق بحملة علي كيخيا.

أما بعد الفصل الخامس فقد جمعنا كافة الوقائع اللاحقة لوفاة عبد العزيز لأن أهمية تاريخ الوهابيين ازدادت منذ ذلك الحين. ففي السنين التي تلت وفاة عبد العزيز، أصبح هؤلاء أسياد مكة أخيراً، بعد أن كانت سيطرتهم عليها غير ثابتة، ثم استولوا بالتالي على المدينة وعلى جدة وعلى الجزيرة العربية بأكملها تقريباً. وفي تلك السنين حاولوا عدة محاولات غير موفقة ضد مصر وسورية وباشوية بغداد، وعرقلوا مسيرة قافلة الحجاج إلى أن أوقفوها نهائياً. ثم كان لهم في الجنوب سيطرة كبيرة على إمام مسقط، أضعفتها الثورات الأخيرة. وهذه النتائج كلها حددت أبعاد وجودهم، وكانت تفاصيلها مجهولة حتى الآن.

وقد اقتصرت روايتنا على سرد موجز للحوادث المعروفة، أما التعليقات والمعلومات الإضافية فقد جعلنا لها ملاحظات خاصة ألحقناها بنهاية الكتاب.

لم تكن غايتنا البحث لاكتشاف مصادر الوهابية في العصور الماضية. وقد قيل إنهم يتحدرون من القرامطة، الذين كانوا منذ حوالى ألف عام يسيطرون على مقاطعة البحرين، والذين ثاروا على سلطة الخليفة الشرعية، ونهبوا الكعبة. ومن هذا الأصل انحدر أيضاً الحشاشون وغيرهم. ولكن هؤلاء جميعهم شوهوا ديانة محمد، بينما كان الوهابيون على نقيضهم إذ أعادوا الديانة إلى بساطتها الأولى. وهذا ما يجعلنا نشك في صحة نسبتهم إلى الأصل المذكور.

ولم يبق لنا إلا أن نقدم بعض الإيضاحات عن المساعدة التي لاقيناها في تحرير هذا الكتاب. وقد استفدنا من الإقامة في حلب حيث ساعدنا أحد سكانها من الموارنة، وهو السيد دييغو فرنجية المعروف بسعة اطلاعه في اللغات الشرقية. وقد جمع لنا تفاصيل بالغة الأهمية عن بداية عهد الوهابيين. وكانت لنا كذلك مراسلات نشيطة مع بعض سكان سورية ومصر ودمشق وبغداد. ولا بد أن نذكر في هذه المدينة الأخيرة المسيو ريمون، وكان آنذاك ضابط مدفعية في خدمة الباشا. وهو الذي أسدى إلينا معروفاً قيماً بتزويدنا بمعلومات كان مركزه واطلاعه يضمنان دقتها وأهميتها. وقد قمنا بمقارنة المعلومات الواردة إلينا من مختلف المصادر، وقابلناها بملاحظاتنا الخاصة، فتوصلنا إلى التأكد من الأحداث الرئيسية وإلى ربطها ببعضها وبالتالي إلى إعطاء آراء إيجابية عن الوضع الحالي لهذا الشعب الجديد الذي سوف يكون موضع اهتمام الجميع.

مذكرة عن الوهابيين

(من ضابط مدفعية فرنسي في حلب إلى وزير الخارجية في حكومة نابليون)

مولاي:

يحدوني الأمل بأن تكون الرسالة، التي أخذت حرية تحريرها لكم في مطلع هذا الشهر، قد وصلت إلى أيدي سعادتكم وتكرمتم بقراءتها بعين راضية ورحيمة! إن هذه الرسالة التي كانت تعبيراً عن التمنيات الصادقة لمواطن فرنسي بأن يعمل في خدمة وطنه، وعن شعور الاحترام العميق الذي يكنه، لم تحتو ما يثير الاهتمام حقاً، إذ إن التفاصيل التي احتوت كانت شخصية فقط، إنما أهميتها الحقيقية كانت في أنها نقلت إليكم بواسطة السيد لابلانش غير الرسمية، وقد شرفني باستعداده الطيب. وإني أقدم لكم اليوم تحت الرعاية نفسها مذكرة عن الوهابيين ولي الأمل، نظراً لوساطته القوية، أن تتفضلوا بقبول هذا البرهان الأولي الضعيف عربوناً عن المودة التي أكنها، وأن تعتبروه كشهادة أكيدة برغبتي بأن أكون ذا نفع لوطني في هذه البلاد النائية.

واسمحوا لي يا مولاي، أن أجدد هنا تأكيد التمنيات لسموكم وأن أكون مع عميق الاحترام،

بغداد في ٣٠ أيار ١٨٠٨

جان ريمون

(في خدمة باشا بغداد)

قبل أن أقول كلمتي عن الوهابيين يقتضي أن ألاحظ بأني خلال اطلاعي على ما قيل لتنوير الناس حول أصل هذه الحركة وولادة بأسها وتقدمها السريع نحو المجد تبينت أنه لا يمكن أن يضاف أي شيء جديد أو مشوق لما سرد عن هذه المادة من تفاصيل وأخبار.

ويبدو لي أن المقال المنشور في جريدة «فرانكفورت» تحت باب «أزمير في ١٥ أيلول ١٨٠٤» هو بمجمله أصدق وأتم ما قرأت حول هذا الموضوع. وقد تفحصت بدقة كل ما ورد فيه وقارنته بالأخبار المتعددة التي وصلتنا هنا بالتداول فلاحظت تشابهاً كبيراً بين جميع الروايات تقريباً.

ومع أني استطعت اكتشاف عدد من الأخطاء في التواريخ وابتعدت في مواقع كثيرة عن الخطوات التي اتبعها مدبج المقال المذكور،

فأضفت بعض الحوادث على الأحداث الكبيرة التي يصف، فإني أعتقد ببقائي ضمن حدود الحقيقة، بالرغم من شعوري بقلة مهارتي في هذه العمل، وأعترف بأني لم أكن أنشد سوى تحليل هذه الوقائع وعرضها في ثوب جديد يبعد الملل. وللوصول إلى غايتي فقد لازمت الدقة آملاً أن ينال جهدي في التقيد بهذه المزية الأهمية التي تعطى عادة لكل جديد.

البلاد العربية التي كانت في الماضي مهداً لأقوى ديانة في العالم وأوسعها انتشاراً أخرجت مجدداً حركة من هذه الديانة يبدو أنها ستأخذ أهمية مماثلة في آسيا. وها هي تعمل منذ الآن على تقويض دعائم الإمبراطورية العثمانية.

ومن المعتاد لدى غالبية الأمم أن تظلل فترة نشوئها بظل من الخيال والأعاجيب. ويقال أن سليمان، وهو عربي فقير وبسيط وصادق من قبيلة النجديين رأى في ما يرى النائم[١] شعلة تخرج من جسمه، فتتخذ شكل عمود من لهب يجوب البوادي ويشعلها. وأخافت الرؤيا سليمان الذي لجأ إلى استشارة مشايخ قبيلته، فأعلمه هؤلاء بأن ولداً له سوف يدعو إلى مذهب جديد ويتبعه سكان هذه المنطقة من البحر الأحمر حتى الخليج الفارسي.

لم تتحقق هذه النبوءة في ابن سليمان إنما في حفيده الشيخ محمد. والسبب أن ابنه عبد الوهاب لم يكن على مستوى يؤهله للقيام بهذه المهمة الكبيرة، ومع ذلك فقد ترك اسمه للأتباع الجدد.

وكان هؤلاء الأتباع في البداية يجتمعون في منازل بعضهم بأعداد لا تتجاوز الثلاثين إما لإقامة الصلاة أو للتبشير بمذهبهم الجديد

بقيادة عبد الوهاب[٢].

أما في زمن الشيخ محمد فلم يعودوا يتوارون لإجراء طقوس ديانتهم بل أطلقت راية الإصلاح في العلن ودون أي وجل. وهكذا يمكن القول بأن عبد الوهاب، الذي توفي منذ سبعين سنة، قد زرع غرسة في هذه الفرقة وأن ولده الشيخ محمد قد رعاها حتى أينعت. وبالفعل فإن الشيخ محمد، وهو رجل مقدام وذو حيلة، شجعته الاستعدادات الطيبة التي خلفتها الرؤيا في أذهان قبيلته، فاستخدمها بمهارة لجعلهم ينظرون إليه كنبي[٣].

ولم يلاق كبير عناء في إقناعهم بذلك بعد أن ساعد في الاعتقاد بقداسة مهمته كونه من سلالة محمد.

واعتمد صاحب الدعوة الجديد القرآن في كل صفائه. وتم حذف الأحاديث والروايات التي أضيفت لإملاء حياة النبي بالأعاجيب، وأراد أن ينظر إلى النبي كرجل حكيم وعادل فقط. فعلم أتباعه أن العبادة[٤] هي لله وحده، وأن كل من يقدس الأنبياء والأولياء ويعطيهم صفات هي للخالق يكون مذنباً بحق الجلالة، وبيّن لهم أن السبيل الوحيد لنيل الرضا أمام الخالق هو الثأر من مدنسي ديانته. كما جعلهم يعتقدون بأنه هو منفذ غضب الله، وقد أرسل للقضاء على المسلمين الكاذبين. ولكنه في الوقت ذاته أخطرهم بأن عليهم التقيد بالعبادة الحقيقية للخالق الأعلى، بأن يتحلوا بكل الصفات الحسنة وبالاستقامة في تصرفاتهم، وبالتقشف المثالي.

وهذه المبادئ وإن كانت تتبع بدقة من قبل هؤلاء، فقد كانت تشكل بطبيعتها حرماناً متواصلاً من شأنه أن يباعد بدلاً من أن

يشجع رجالاً ما زالوا مرتبطين بعاداتهم وتقاليدهم مغرورين باستقلالهم ومعتادين على النهب والسلب.

وشعر الشيخ محمد بالصعوبات التي ستواجهه بها حياة ركود، وتبين له الخطر الذي سيلحق به إذا لم يساند رسالته بالسلاح. كما تبين ضرورة تغذية تعطشهم للغزو بقيادتهم ضد أعداء الله. لذلك خرج من اليمن[٥] وفتش عن حليف قوي يقبل السير معه، ولكن محاولاته لم تثمر. ولما يئس من استجلاب الأمراء لمساعدته، ابتعد عن المدن الكبيرة[٦] وقرر غزو الأماكن التي تتيح له نصراً أسهل وخضوعاً أسرع لسلطته. وهكذا توجه نحو سعود أمير الدرعية والأحساء الذي أصغى له.

وكان سعود[٧] هذا يترأس قوماً عريقاً من قبائل النجديين والعنزة والعتوب[٨] الذين اختاروه أميراً بعد اتحاد قبائلهم.

وكان أميراً شجاعاً مقداماً محباً للغزوات. وكان المذهب الجديد يتيح له فرصة الاستفادة من إقدامه. ولما كان يفتش عن سبب للقتال فقد سره الحصول على سبب محدد جاهز. لذلك اعتنق تعاليم عبد الوهاب، فكان لاعتناقه أثر عميق جعل أتباعه يقتدون به.

كان هذا التحالف من أسباب انتشار المذهب الجديد. فازدادت الحركة قوة وخرجت قوتها المتأرجحة وغير الثابتة من مهدها، واتخذ هذا الشعب الجديد اسم «الوهابيين» (وهو اسم أخذوه عن عبد الوهاب والد محمد كما أشرنا أعلاه) ووجد محمد وسعود نفسيهما على رأس هذا الشعب الجديد فاقتسما فيما بينهما السلطة العليا، فكان للأول السلطة الدينية وللثاني السلطة الدنيوية بعد أن

تعاهدا على المحافظة على هذا التمييز لدى ذرية العائلتين. واتفقا كذلك على اختيار الدرعية عاصمة لهذه الإمبراطورية الوليدة، وهي مدينة محصنة تحصيناً جيداً، تقع جنوبي غربي بغداد على بعد مسيرة اثني عشر يوماً من البصرة، في وسط صحراء كبيرة، وفيها أعد سعود أول خطط غزواته، ووضع كافة الإمكانات للتأكد من تنفيذها، كما اهتم بتنظيم جنوده. وبالرغم من أن هؤلاء اعتادوا تحمل المشاق، فقد أخضعهم لأسلوب من التدريب جعلهم أصلب عوداً. فاعتادوا على تحمل الجوع والعطش، لمدة يومين أو ثلاثة، وعلى الاكتفاء بالقليل من الطعام تمشياً مع وضع الإقليم الخاص ومع أسلوب الحرب المتبع لديهم.

مطيتهم المعتادة الناقة، ويسمونها «مردوفة» لأنها تمتطى عادة من قبل رجلين في وقت واحد. وهذا الحيوان الثمين يحتمل العطش لأربعة أو خمسة أيام. وليس من العجب أن يؤدي تطبيق هذا النظام إلى أن يصبح لدى سعود في فترة قصيرة، جيش هائل متأهب وعلى استعداد لاجتياز مسافات شاسعة من الصحراء خلال فترة قصيرة، وهكذا أمكن لهذا القائد أن يخضع عاجلاً، جميع القبائل المجاورة، زارعاً الرهبة في كل مكان، وهو يحلم بأعمال أكثر أهمية، حين تناوله الأجل من وسط مشاريعه التوسعية. فخلفه ابنه عبد العزيز الذي ما كاد يصل للحكم، حتى التفت إلى تحقيق الآمال التي عقدها والده. وللتوصل إلى ذلك اعتمد أسلوباً نظامياً جذرياً.

وكان عبد العزيز، قبل أن يهاجم القبائل يرسل إليهم رسولاً، يحمل هذا الإخطار: «القرآن في يد والسيف في الأخرى» مع كتاب موجه إلى القبيلة التي يرغب في إخضاعها منصوص بشكل يتفق مع مبدأ الإصلاح. ونورد فيما يلي نصاً مستخلصاً من هذه الدعوة المقتضبة:

«السلام على قبيلة كذا، إذا وعيتم كلامي، نجوتم، أما إذا أهملتموه فسينالكم غضب الله». وهذه الكلمات التي كان يؤازرها وجود جيش منتصر، كانت ذات مفعول أكيد. ومن المستحيل تعداد القبائل التي خضعت للوهابية. وكانت القبائل التي تنقاد لدعوة عبد العزيز، تستقبل استقبالاً حسناً، أما تلك التي كانت ترفض الطاعة فكانت تقاتل وتصبح أموالها غنيمة للمنتصر.

وصادف عبد العزيز في كل مكان النصر الذي يرافق عادة شعباً يقاتل في سبيل مبدأ ديني. وكان الوهابيون يزدادون قوة وسلاحهم في يدهم بحيث لم يكن من يستطيع مقاومتهم، وكان الكل يرتجف أمامهم. كانوا يتقدمون لعدة أماكنٍ في آن واحد فكان وجودهم غير المنتظر يشل الأذهان، ثم يعودون إلى الدرعية محملين بالغنائم الثمينة التي انتزعت من أعدائهم المهزومين. وكانوا يقتسمون هذه الغنائم فيأخذ عبد العزيز الخمس ويعطي الواحد من عشرين منها إلى جنوده[٩].

ونتيجة لهذه الانتصارات وجد عبد العزيز خزائنه مكتظة بالكنوز كما وجد نفسه على رأس جيش رهن إشارته. وكان أتباعه يخلصون له إخلاصاً أعمى بحيث كان يكتفي في حال حاجته إلى الغزو، بأن يكتب لقبيلة ما كتاباً بهذا المعنى «من عبدالعزيز إلى الشيخ فلان، يجب وجود كذا عدد من الرجال في اليوم الفلاني في المكان الفلاني»، فكان هذا الطلب ينفذ حرفياً. ولا ينبغي استغراب إخلاص كهذا، لأن أي تردد كان يؤدي إلى موت من يلجأ إليه. لذلك فإن عبد العزيز كان يجد في اليوم المعين، وفي المكان المعين، العدد المطلوب من الرجال مسلحين بالرماح، أو البنادق، ممتطين ناقاتهم ومزودين بالمؤونة الكافية لحوالى عشرين يوماً.

وكانت بلاد العرب تضج بانتصارات الوهابيين بحيث باتت البلاد المجاورة تخشى على نفسها. فمكة والمدينة وبغداد والبصرة ومسقط التي كانت معرضة لغزواتهم كانت تخشى النتائج الوخيمة. واحتقر الباب العالي، أول الأمر هذه الحركة الجديدة، التي جمعت أقواماً يحتضنهم البؤس والفقر، فكونوا جماعة من المنشقين. ولكنه أصبح أخيراً في حال لم يعد يسمح له بتجاهل شكاوى حكام ولاياته، أو بالنظر بعين اللامبالاة لانتصارات عبد العزيز. وقد أذهلت الباب انتصاراته، وندم على عدم خنق هذا السرب من المنشقين قبل انتشارهم، وبغية إيقاف استمرار تقدمهم صدرت الأوامر لباشا بغداد بإعداد ما يلزم لتجهيز حملة ضدهم، وضم قواه إلى قوى إمام مسقط.

ولكن حكومة بغداد كانت بجانب الوهابيين، وكان بإمكان أحمد كيخيا، الوزير[١٠] الأول في بغداد، أن يزيل بسهولة هذا التكتل الجديد، إذ كانت له صفات الرجل العظيم والأمير الطيب، وإن طغت على هذه الصفات الطيبة، صفة البخل الخبيث. وقد انقاد لمصلحة ولتأثير محمد شاوي رئيس قبيلة علوبية والبنيت[١١] ومستشار الباشا الخاص المكلف بأمور الوهابيين، فترك نفسه ينام آمناً بأن لا قوة لهم واعتبرهم جسماً زائلاً يستجمع قوته من ضعفه.

وبناء على إشارته، أرسل سليمان باشا (باشا بغداد) إلى السلطان في بداية عام ١٧٩٦ عرضاً معللاً يبين فيه أن الطريق من بغداد إلى الدرعية غير سالكة نظراً لقحل الأرض، ولفقدان الماء، وأن نظام الجيش الوهابي يختلف تماماً عن النظام العثماني. وأنه نظراً لهذه الصعوبات التي يجب اجتيازها، يكون من الأفضل الوقوف موقف الدفاع بدلاً من خوض غمار حملة ليس ما يشير إلى احتمال

نجاحها، إلا إذا أعطيت الأوامر إلى جميع الباشوات المتاخمين للوهابيين، بأن يشتركوا معاً في تحطيم هذا العدو المشترك.

وبدلاً من أن يأخذ السيد الكبير نظريات باشا بغداد الصحيحة بعين الاعتبار، اعتقد أن الأمر سهل، فكرر أوامره للباشا بشكل صارم، ووصلته في وقت فقد فيه الوهابيون صديقاً بموت أحمد كيخيا، فنفذت الأوامر.

وكان علي آغا (وهو اليوم الباشا) أمين خزنة الباشا الخاص وعدو الكيخيا اللدود قد قتل هذا الأخير للتشفي، أمام سيده[١٢] فأوصلته هذه الفعلة إلى رتبة وزير أول. وكان سليمان باشا يرغب بمعاقبة الفاعل، ولكن مستشاريه بينوا له الخطر من اللجوء إلى أي إجراء من هذا القبيل، لذلك سمى القاتل كيخيا وزوّجه ابنته. وبالنظر لحماسة هذا الأخير للانقضاض على الوهابيين، فقد كان فرحه عظيماً لإتاحة الفرصة أمامه لهذه الغاية، فقبل بسرور قيادة الجيش الذي كان سليمان باشا قد جمعه لمهاجمة الأحساء. وسلك بنهاية عام ١٧٩٧ طريق الحلة يرافقه محمد بك الذي كان يتولى تقديم المشورة له وإدارة أعماله خلال هذه الحملة. وسار على شاطىء الفرات حتى أسوار البصرة حيث مكث ثلاثة أشهر بانتظار إكمال الاستعدادات اللازمة لهذه الحرب. وفي الأيام الأولى من شهر كانون الثاني ١٧٩٨، وبعد مسيرة شاقة دامت عشرة أيام، بين الصخور الوعرة، وجبال الرمال المتحركة، وصل علي باشا إلى مسافة ثلاثة أيام من الأحساء، ونظراً لعدم وجود الأدلّاء المطلعين، لإرشادهم إلى مواقع آبار مياه الشرب، ظل رجاله طوال ثلاثة أيام من دون ماء. كما كان عليهم جعل الابل تجر مدافعهم التي كانت تختفي في الرمال، فلا يتقدمون إلا ببطء.

ولما وجد علي باشا نفسه على مقربة من الأحساء أرسل بعض جنوده من مقدمة الجيش لاستطلاع تحصينات العدو الأمامية. ولكن الوهابيين فاجأوا السرية وقطعوها إرباً حيث كان لهم عيون في كل مكان، وحتى في قلب مجالس هؤلاء الذين يحاربونهم، لذلك كانوا على علم بوصول علي باشا وكانوا بانتظاره. وعاد نفر قليل ممن نجا من السرية لإيصال الخبر إلى الكيخيا الذي سيَّر فوراً سرية من الفرسان الأكراد للثأر لهذه الهزيمة. فدخل هؤلاء حتى قلب المدينة، يهدمون ويقتلون كل ما صادفهم، فأدهشت شجاعتهم الجميع، وتراجع الوهابيون إلى داخل الحصن، وأرسل السكان الذين نجوا من غضب الأكراد، رسولاً إلى الكيخيا يعلمونه بأن المدينة تطلب صداقته.

وفوجىء الوهابيون، إذ رأوا أنفسهم محاصرين من قبل عشرة آلاف أو اثني عشر ألفاً من الرجال فطلبوا هدنة شهر واحد، لتقرير تسليم الحصن ونالوها. ولكنهم كانوا يريدون كسب الوقت فقط، وتلهية علي باشا، فرفضوا بعد انقضاء المدة المحددة المحافظة على وعدهم، وبدأ الحصار. وبوشر بضرب الحصن بالمدافع فكانت القنابل تلحق به أضراراً كبيرة. وكان الوضع ينذر بالانهيار، عندما شعر عبد العزيز بالخطر الذي يهدده وباستحالة استطاعته الصمود طويلاً، حاول أن يغري بالذهب ذلك الذي لم يستطع إبعاده بالسلاح. ولهذه الغاية اتصل بمحمد بك، وكان يعلم أن هذا الأخير يخلص له إخلاصاً تاماً، حيث كان يبادله الرسائل العديدة خلال هذا الحصار، فقدم له هدايا كثيرة لحمله على إقناع الكيخيا علي بالعدول عن مخططه بإخضاع الحصن[١٣]. ووعد محمد بك بكل شيء، وجعل يخفف تدريجياً من حدة الحصار، فإذا شق جيش بغداد منفذاً في الجدار يكفي لاقتحام الحصن، كان محمد بك يجد دائماً الأعذار اللازمة

لإعطاء الوهابيين فرصة إصلاح العطب، فيعود الأمر إلى بدايته. وقام جنود علي باشا بحفر نفق تحت الحصن، إلا أنهم فوجئوا بنفق معاكس حيث إن العدو كان على اطلاع عليه عن طريق محمد، فأشعل النار في طريق المتقدمين وقضى على أغلب العمال في النفق.

ولما رأى علي باشا أن شجاعته لن تجديه نفعاً أمام الأحساء نظراً لألاعيب محمد بك السرية، الذي كان يعاكسه في تنفيذ مخططاته، أخفى شعوره. وخوفاً من غضب سليمان باشا في حال عدم إصغائه لرأي المشاور، قرر رفع الحصار حالما بيّن له هذا الأخير حالة الإعياء التي تسيطر على الجيش وخوفه من هجوم الوهابيين. وأعطيت الأوامر لهذه الغاية، وقد أملت الحيطة للانسحاب السريع اتخاذ الإجراء التالي: فالجيش كان يرزح تحت ثقل أسلحته، ومرض أفراده، وضياع الكثير من الخيل والإبل التي قضى عليها الجوع والعطش أو أقعدها عن الحركة. لذلك فكر علي باشا بتلافي المفاجآت الوخيمة بأن ينسحب في أقرب فرصة، وأن يدفن العتاد والذخيرة التي يمكن الاستغناء عنها، على أن يحتفظ فقط بما يكفي للدفاع عند الحاجة، وأن يجمع كافة المعدات غير الضرورية، كالخيام والمساند والفرش وغيرها لتحرق. ونفذت هذه التدابير بحذافيرها. وفي الليل بدأ الجيش انسحابه بسرعة فائقة. وكان الاستعجال الذي أبداه والعطش الذي قاساه بالإضافة إلى خشية مضايقة الوهابيين له، أرحم بكثير من فواجع الجوع الذي قد يعرضه له أدنى تأخير بالانسحاب.

وكان الجيش قد قطع بسيره حثيثاً ما يقارب نصف المسافة إلى البصرة عندما شاهد عدداً كبيراً من «المردوفة» يحاولون النزول ببئر كان علي باشا ينوي ضرب خيامه بقربها[١٤] فأرسل علي باشا في

الحال فريقاً من الفرسان للحيلولة دون نجاح مسعاهم ولإفساح المجال أمام الجيش للتجمع وضرب الخيام. ولاقتناعهم بأن العثمانيين ينوون القتال وبأنهم يفوقونهم عدداً، أرسل الوهابيون الرسل إلى القائد عارضين السلام، فرفض في البداية مما أدى إلى بعض الاشتباكات الدامية التي لم تستمر طويلاً.

وقبل الوهابيون أخيراً بدفع نفقات الحملة، وبعقد الصلح بواسطة محمد بك[١٥]. وكان من المحتمل أن تؤدي الحملة إلى انكسار الوهابيين لو استطاع علي باشا باندفاعه التأثير على مستشار سليمان باشا ولكنها أدت إلى نتيجة معاكسة تماماً، فبعد تخلص الوهابيين من خوفهم وعلمهم بالتجربة أنهم يستطيعون قهر أسلحة باشا بغداد بسهولة، بدأوا بإخضاع الأعراب القاطنين على شواطىء الخليج الفارسي، ببسط سيادتهم على ضواحي البصرة، بحيث لم يحلّ آخر عام ١٧٩٩ إلا وكانوا أخضعوا الكثير من المدن البحرية.

وفي هذا الوقت بالذات لم تهتم حكومة بغداد بجعل الوهابيين ينفذون الوعود التي قطعوها، ولم تهتمّ بعدد الأتباع الذين جمعوا على شواطىء الخليج الفارسي، وكانت تبدو وكأنها على اتفاق مع هؤلاء. إلا أن حادثاً مؤسفاً عكر صفو هذا الهدوء الظاهر.

فمنذ إحلال السلام بين باشا بغداد والوهابيين، قام هؤلاء كعادتهم بالتوجه إلى بلدة الإمام علي لتبادل سلعهم بالسلع التي يحتاجون.

وفي مطلع عام ١٨٠٠ أقبل حوالى المائتين منهم، وكانت قافلة بهذا الحجم تفتح أمام أهل البلاد مجالاً لبيع فائض موادهم. ولكن مشادة وقعت بين البائعين وبعض عرب الخزاعل[١٦] القادمين لزيارة

مقام الإمام علي أدت إلى بعض الاضطراب. تجمع الخزاعل في الليل وذبحوا حوالى ثلاثين من الوهابيين. فلاذ الباقون بالفرار، وأوصلوا خبر الكارثة إلى عبد العزيز.

لدى اطلاعه على هذا النبأ السيىء، أرسل عبد العزيز إلى سليمان باشا يطلب الإنصاف وإعدام المذنبين. فاستقبل الباشا الرسل استقبالاً حسناً، وقدم لهم الهدايا الثمينة، وعادوا يرافقهم شقيق محمد بك وكان اسمه عبد العزيز. وقد توجه هذا السفير[١٧] بحراً إلى خليج القطيف ومن ثم إلى الدرعية لتهدئة خاطر عبدالعزيز. وقد عرض على عبد العزيز صداقة سيده وأجزل له الوعود. ولكن رئيس الوهابيين، طلب تسليمه مقترفي هذا الفعل غير الإنساني، مستنداً إلى أحكام القرآن لكي ينال هؤلاء العقاب في سبيل أشخاص قتلوا ظلماً، أو أن تدفع أثمان الدماء كما هو مذكور في كتاب الله. ولم تسمع طلباته وإن كانت جد معقولة. ورفض الباشا العدالة لعدو يمقته. أثار الوهابيين التحدي بهذا الشكل وأدخل في قلوبهم الرغبة في الثأر لظلم هذا التصرف.

وقام عبد العزيز يعد العدة للاقتصاص من الرفض الذي قابله به سليمان باشا فاختار يوم ٢٠ نيسان ١٨٠٢ للتنفيذ، بغزو مقام الإمام حسين، وهو مكان مشهور بتدفق الحجاج الدائم إليه من الهند وإيران. وكان اليوم يوم عيد الإمام علي حيث تجمع عند مقامه غالبية سكان الإمام حسين بغية التعبد، ولم يبق هنالك سوى حامية ضعيفة للدفاع عن الموقع. فتقدم سعود وفقاً لتعليمات والده حتى أسوار المدينة، التي كانت شبه خالية، يرافقه جيش مكون من (٧٠٠٠) مردوفة أي (١٤٠٠٠ رجل) فاحتلوا مقام الإمام حسين خلال لحظات. قاومت الحامية بشدة ولكن كان عليها الخضوع

للقوة مما أتاح للوهابيين الدخول إلى المقام المقدس، وقد ضحوا بكل شيء في نصرة حركتهم الناشئة، وكان يقينهم بأن عملهم يرضي الله يدفعهم للتشوق إلى الدماء. لم يعف عن الرجال ولا عن النساء والأطفال، ولم ينج منهم إلا من استطاع تفادي النقمة بالهرب[١٨]. وبعد أن توقفت المجزرة، فكر البعض في الاستيلاء على الكنوز الضخمة التي ساقها إلى المكان تديّن أعمى (النذورات)، وظن البعض الآخر أن قبة المسجد مغطاة بصفائح الذهب فأخذوا ينتزعونها حتى تبين لهم أنها صفائح من النحاس مطلية بالذهب، فتركوا ما تبقى منها.

ولدى وصول الخبر إلى سليمان باشا قام بإرسال الكيخيا بسرعة كبيرة مع سرية من الفرسان لمكافحة أفعال اللصوصية هذه. وباشر علي باشا المهمة على الفور ولكن استحال عليه إدراك الوهابيين، إذ لم يدم حصار المدينة والاستيلاء عليها، سوى خمس ساعات تم خلالها اغتيال من أرسله سوء الطالع بطريقهم، كما تم تجريد مقام الإمام الحسين من كنوزه، فحملوا هذه الكنوز الثمينة على إبلهم واختفوا. وندم سليمان باشا بعد فوات الأوان.

وفي مجال الحديث عن الإمام الحسين، لا بد من التذكير هنا بخلاصة لتاريخه، وإن كان معروفاً لدى الكثيرين. كان الحسين، حفيد النبي محمد، أحد ولدي علي وفاطمة بنت الرسول، ولما صارت الخلافة في يد ابن مغتصبها معاوية، لم يرد الحسين الاعتراف به كخليفة حقيقي وقد انفطر قلبه لنهاية أبيه وأخيه المفجعة. انعزل الحسين في مكة يشكو ما لحق به. وكان له الكثير من المؤيدين، فالمسلمون جميعهم أيدوا قضيته، ولكن من دون أن يتجمعوا لمساندة حقوقه. وعندها وجه إليه الكوفيون الدعوة للمجيء إلى

مدينتهم لينادوا به خليفة. ونصحه أصدقاؤه بشكل فيه الكثير من الإقناع، بألّا يصغي للوعود الجميلة التي وعده الكوفيون بها. إلا أن الحسين لم يأبه للنصائح الحكيمة التي قدمت له فغادر مكة مع زوجاته وأخواته وأولاده وحوالى مائة شخص آخر عقدوا النية على السير معه. ولدى وصوله إلى الكوفة، وهي مدينة صغيرة بالقرب من الإمام علي، وجد أبوابها مغلقة. طارده جيش مؤلف من خمسة آلاف رجل فانسحب إلى سهول القيصرية ليضرب خيامه هناك بالقرب من مجرى ماء ولكنه علم أن أحد قواد يزيد قد استولى على ذلك المركز ولم يسمح بالاقتراب منه إلا للنساء المرافقين له.

غضب الحسين لهذا السلوك الشائن وفضل الموت على قبول الشروط التي عرضت عليه، فاستعد للقتال وتحصن في خيامه التي لم تكن لتحمي جيشه الصغير وباشر قتالاً عنيفاً دام عشرة أيام. وكان القتال يتوقف عند المساء ليعود أكثر ضراوة في الصباح التالي. وفي اليوم العاشر جلس الحسين وقد أنهكه التعب وأثخنته الجراح، ليستريح هنيهة بعد أن رفض الاستسلام. ووقف أعداؤه معجبين بشجاعته يبكون ولا يجرؤون على ضربه إذ لم يكونوا يرون فيه سوى حفيد النبي محمد. ولكن رمحاً وجهه القدر نحوه جعله يقع أرضاً بين اثنين وسبعين من رفاقه الذين قتلوا وهم يحاربون إلى جنبه. وقد قطع رأسه وأرسل إلى يزيد في دمشق ودفن جثمانه، إما في قيصرية أو في نينوى، في العام ستين للهجرة، بدون أي احتفال أو إشارة إلى مكان دفنه.

وبعد انقضاء مائة عام، اكتشف الإمام جعفر ابن الإمام موسى مكان دفنه[١٩] فدل الناس عليه بقوله هذه كربلاء (مكان الكرب

والبلاء) وعندها بني في ذلك المكان ضريح صغير واعتبر موضع تقديس وتكريم. وهذه الحادثة وما تبعها ردود أفعال، زرعت الشقاق بين المسلمين، فسمي أتباعه الشيعة وسمي أعداؤهم السنة.

وفي عام ٢٣٢هـ (٨٤٧) أمر الخليفة جعفر[٢٠] الأول بأن تلعن ذكرى علي والحسين في جميع المساجد، كما أمر بهدم ضريحيهما، وبقيت هذه الأماكن مهملة حتى عام ٣٤٧هـ (٨٦١) حين أعاد الخليفة محمد الرابع بناء الضريحين وكان يقدس الإمام الحسين تقديساً كبيراً. وفي عام ٣٥٢هـ (٩٦٣) قام معز الدولة من آل بويه الذين استولوا على الحكم في بغداد، بإحياء عاشوراء، تخليداً لذكرى العشرة أيام التي حارب فيها حسين جيش يزيد. وفي تلك الأيام بالذات بدأ الخلاف بين السنة والشيعة يأخذ طابعاً عنيفاً دام ثلاثة قرون، كان فيها كل فريق يكفّر الآخر وأصبح الشرق مسرحاً لحروب دامية أشعلها التعصب.

ثم قام الخليفة عبدالله السابع[٢١] بدعوة هولاكو للثأر للشيعة، أملاً في أن يضع بذلك حداً للخلاف. فقام هذا الأخير من بلاده على رأس جيش قوامه مائة ألف رجل وانقض على بغداد في عام ٦٥٦ (١٢٥٨) وذبح جميع سكانها.

وهكذا بدلاً من أن يجد الشيعة في هولاكو العون الذي كانوا ينتظرون، وجدوا أنفسهم وكأنهم دفنوا تحت أنقاض بغداد. ودام ذلك حتى أيام الشاه إسماعيل[٢٢] أردبلي مؤسس سلالة الصفوية. فقد قام هذا الملك في القرن الخامس عشر بإنشاء مسجد عند مقام الإمام الحسين وسمح للزائرين من جميع الأماكن أن يؤمّوه. فقام الكثير من العرب بالسكنى قرب المسجد. وكان الشيعة في ظل

حكمه ذوي مكانة وقوة هي الراجحة في بلاد الفرس. وقام خلفاء الشاه إسماعيل فيما بعد بتجميل ضريح الإمام الحسين المقدس، ومنهم الشاه عباس، وذاماس قولي خان، وغيرهم.

وتبع ملك العجم الحالي خطاهم، حتى أنه قام بإنشاء حاجز جميل من الفضة حول المقام. والإمام الحسين بلدة أبنيتها تعيسة غير محصنة تقع على بعد خمسة أميال من الإمام علي ويقطنها حوالى ستة آلاف شخص.

وخشية أن يقوم الوهابيون بالهجوم على الإمام علي(٢٣)، ظل القائد في جوارها حتى الصيف، وقد شوهد بعض الوهابيين في القفار، وما لبثوا أن ولّوا الأدبار بعد إطلاق المدافع عليهم.

وقام علي باشا، بناء على إشارة سليمان باشا، بنقل كنوز الإمام علي إلى مقام الإمام موسى، على بعد ميل واحد من بغداد، لكي تحفظ بعيدة عن طمع الوهابيين.

أثر هذا الأمر كثيراً على باشا بغداد، وكان له بمثابة ضربة قاضية له. الا أنه وفقاً للوعود التي قطعها لملك الفرس، قام بإجراء بعض التصليحات في الإمام الحسين، وأعطى الأوامر اللازمة لتجهيز حملة ضد الوهابيين. ولكن أجله الذي وافاه في ٧ آب، عطل تنفيذ هذا المخطط.

ما كاد خبر تراجع سعود ينتشر، حتى تبين أن عبد العزيز وجه نظره شطر مكة، وقد أصبح بعد تجريد الإمام الحسين، خوف العرب ومعبود أتباعه، وجعلته الكنوز المتجمعة منذ قرون قادراً على الثبات

أكثر من عام كامل. وبالفعل فإنه حين شعر أن الكل يرتجف عند ذكر غزواته، رغب في الإفادة من هذا الشعور بأن يظهر لأعدائه قدرته، حيث أراد نشر سلطانه نحو الغرب، كما فعل نحو الشرق. وكان يرى سهولة في الانتصار، نظراً للانقسام الواقع بين غالب وأخيه(٢٤) الذي طلب العون من رئيس الوهابيين. وفي البداية طلب عبد العزيز إلى غالب أن يرجع عن مطاليبه. ولما رفض هذا الأخير الانصياع أرسل عبد العزيز ولده مع ثمانين ألف مقاتل لإعادته إلى الصواب. وبدأت الحملة بسقوط الطائف، وهي بلدة صغيرة تتوسط سهلاً جميلاً مشهوراً بخصبه. وكان لنبأ هذا النجاح العظيم، الذي رافقه نبأ مقتل ١٥٠٠ رجل من اليهود والمسلمين، وقع عميق في أوساط المدينة المقدسة، بحيث فضل الشريف غالب التوجه لمقاتلة سعود في الطائف، بدلاً من أن ينتظره في بلد غير محصن. ولكنه انكسر واضطر للعودة إلى مكة لستر ما أصابه من عار الهزيمة.

وفي هذه الأثناء كان عبد الله باشا حاكم دمشق وحامي قوافل الحجاج إلى مكة في طريقه إليها، وعلى بعد يومين من دمشق فقط، بلغه نبأ الاستيلاء على الطائف وما يهدد مكة من خطر. فكتب إلى الآستانة ليبلغ الباب العالي بما حدث، ومن دون أن يخشى العقبات التي يمكن أن تعترضه، تابع سيره. وبعد مسيرة يومين اعترضه نفر من الوهابيين يعدون أربعماية، تذرعوا بما تدفعه القوافل عادة في مثل هذه الحال، ليصروا على طلب ما يضاهي أربعة أضعاف المبلغ. ولم يقبل عبد الله باشا تلبية طلبهم، فنشب قتال وقع بنتيجته مائة وخمسون من الوهابيين في ساحة المعركة.

ولما كان عبدالله باشا غير متأكد من وقع نبأ موت الجنود على قائد

الوهابيين، فقد كتب له يعلمه بما وقع. ونالت رسالته قبولاً حسناً حيث سمح له سعود بثلاثة أيام للقيام بزيارة بيت الله.

ولما علم غالب باشا بقدوم قافلة الحجاج، وكان يخشى على نفسه، لجأ إلى عبدالله باشا الذي توسط له. أغضب ذلك سعوداً واضطر عبدالله باشا لمغادرة مكة في اليوم المحدد. ورافقه غالب وشريف باشا من جدة لدى سفره إلى المدينة. ثم انتقلوا إلى جدة. وما كادوا يصلون حتى باشروا بالاستعداد لتحصين أنفسهم فيها بينما كان سعود يدخل مكة ظافراً، حيث سيطر عليها، وترك حامية مؤلفة من مائتي رجل في الحصن. كما فوض متولياً للسهر على تصرف عبدالمعين الذي أعاده شريفاً. ثم تابع سيره لحصار جدة.

وعند أسوار هذه المدينة التي قام بتحصينها غالب المنهزم، رأى سعود دوي انتصاراته يتضاءل، بعد أن كان يتصاعد حتى ذلك الحين. وأكثر ما أثر على عزيمته المقاومة الشديدة وعدد الضحايا من الرجال لدى كل هجوم، بالإضافة إلى ما كان يحصده الطاعون منهم. ولم تكن أخبار الجيش الذي توجه إلى المدينة مشجعة، وهذا ما جعله يرفع الحصار.

وحاول سعود محاولة ثانية لمفاجأة المدينة رغبة منه في محو عار هذه الانكسارات. ولكن خطته لم تنجح واضطر إلى الرجوع إلى الدرعية، حيث كانت تنتظره مصائب أكبر. وقد علم فور عودته إلى هذه العاصمة أن غالباً يدعمه سكان مكة، قد طردوا المرابطة الذين تركهم[٢٥] هناك وأنه اغتصب الحكم من أخيه. وقد علم بأن باشا بغداد قد قتل محمد بك[٢٦] في عام ١٨٠٣، وهو الشخص الذي كان كما قلنا، مخلصاً كل الإخلاص لصالح الوهابيين. وبعد

زمن يسير آلمته رؤية والده يقع ضحية رجل متعصب حرضه علي باشا على القتل. والرواية المتداولة لهذه الجريمة هي أنه تم إقناع درويش كردي[٢٧] بأن من يعرض نفسه للموت بتخليص العالم من شخص عبد العزيز لا بد أن يكتب له أجر عند الله. لذلك توجه هذا الكردي إلى الدرعية ووجد وسيلة للدخول في خدمة عبدالعزيز. واجتهد في البداية للظفر بثقة سيده الجديد وتوصل إلى ذلك من دون عناء، فصار يحضر جميع الاجتماعات وأصبح هذا الخادم «المخلص» يرافق عبدالعزيز في جميع تنقلاته. وأخيراً أتى اليوم المحدد لتنفيذ هذا الجرم القبيح. فوقف وراء عبد العزيز وهو يؤدي صلاته، وغافله بضربة من خنجره طرحته أرضاً، والتفت إلى[٢٨] سعود الذي كان بالقرب من أبيه محاولاً ضربه ولكن حيل دونه وذلك، وأصابته ألف طعنة أردته قتيلاً على الفور. ولدى تلقّي باشا بغداد الخبر كافأ المخبر مكافأة سخية. وتولى سعود مكان أبيه. ولكن قبل الحديث عن أعماله بعد استلامه الحكم، من المفيد تبيُّن الصفات التي امتاز بها.

كان عبد العزيز سياسياً ماهراً وقائداً ماهراً. وكان العدل يوجهه في جميع تصرفاته. اكتسب قلوب أتباعه بإنسانيته، أو بتعبير أصح أصبح أباً لهم. دائم الحركة واليقظة، لم يكن يهمل أي شيء لكسب تقديرهم. ففي أول أيام حكمه لاحظ أن الغنائم التي يحصلون عليها لا توزع كما يجب وأن الرجال يتضايقون من أن القسم الأكبر منها يذهب لرؤسائهم، فأمر بتوزيعها كما ذكر أعلاه. ولاحظ كذلك أن أغلب القبائل العربية تأنف من اعتناق الوهابية خوفاً من أن تجرد من ثرواتها، فأعلمهم بأن من يقبل حكمه الذي هو حكم القرآن وحكم القادر الأعلى، لن يمس لا في شخصه ولا في أمواله. وكان لهذا القرار كل الأثر الذي كان يأمل.

كان عبد العزيز دقيقاً وصادقاً في المحافظة على مواثيقه. وكان الممثل المقيم في البصرة قد حاول توثيق الصلات بينه وبين عبدالعزيز لتسهيل إرسال الطرود بين البصرة وحلب، وطلب ذلك إلى عبد العزيز الذي أصدر أمراً يحذر جميع التابعين له من التعرض لمراسلي السيد مانتي. وبالرغم من هذا التحذير سلب الوهابيون مراسلاً يحمل طرداً إلى حلب. فشكا الممثل المقيم الأمر لدى عبد العزيز الذي أذاع بلاغاً إلى جميع الجهات يطلب مثول المذنب أمامه. ولا بد أن المذنب اقتنع بأنه لن يستطيع النجاة من غضب سيده، فجاء مرتمياً عند قدميه وبيده الطرد المفقود. فكان الموت عقاباً لعدم طاعته، وأمر عبد العزيز بقطع رأسه، وبعد أن غمس الطرد بدم هذا المسكين، أعاده ملوثاً بالدماء إلى السيد مانتي، ليبين له الدقة التي يحافظ بها على تعهداته. ومهما كانت دوافع عبد العزيز السرية، يجب القول بأنه كان للسياسة قسط أوفر في عمله هذا كما كان للصداقة المتبادلة بينه وبين الممثل المقيم.

وكان عبد العزيز كذلك متمسكاً باحترام حقوق الناس. فإذا صادف مثلاً أن طلبت قبيلة يحاربها، أموالاً أخذت منها في حالة السلم، فإنه كان يلبي الطلب فوراً كما لو لم يكن بين الاثنين شيء. وبغية إحقاق الحق في ذكر هذا الرجل العظيم، يمكن سرد أمثلة عديدة على هذا المنوال، تشرّف سمعته، ولكن ما قيل فيه الكفاية. وقد آن الأوان للتحدث عن حكم سعود.

ورث سعود قوة أبيه ولكنه لم يرث مزاياه. والواقع أنه ليس لديه تعصب أبيه الديني، ولكنه أكثر منه استبداداً بكثير. وهو يحب إظهار العظمة في جميع نفقاته كما يطلب الظهور والأبهة. كل شيء في قصره يوحي بالعظمة، إذ لم يهمل أي شيء لتزيينه.

الذهب واللآلىء وأغلى الأقمشة من الهند استعملت في تجميله. ويؤكد بعضهم أن العباءة التي كان يلبسها رائعة جداً كلفته ما لا يقل عن ٦٠٠,٠٠٠ قرش. وقد يُظن عند مشاهدة هذه الظواهر أن حاشيته تقلده وتلبس مثله، ولكن الواقع أنه تركهم على بساطتهم. وإذا كان سعود يلفت النظر بالأبهة داخل قصره، فإنه يلفت النظر خارجه أكثر بالعدد الكبير من الحاشية التي ترافقه فتفرض الاحترام حيثما ذهبت.

ويجب الملاحظة هنا أن الشيخ محمد قد توفي منذ حوالى ستة عشر عاماً وأن ولده حسين قد خلفه ويقال إنه كان ضريراً منذ ولاذته.

وأول عمل قام به سعود بعد وفاة والده هو إرسال فرقة قوية من المردوفة لجوار الإمام علي في نهاية عام ١٨٠٣ ليظهر لباشا بغداد بأنه وإن كان تخلص من عبد العزيز بالجريمة فإن هذا ما زال يحيا في ولده. وحالما علم علي باشا باقتراب جيش سعود، أرسل لملاقاته الشيخ فارس الجربا، وهو وهابي يترأس قبيلة قوية ما بين النهرين إلى الشمال من الحلة ويعيش والداه في الدرعية. أما هو فنظراً لما يتمتع به من مكانة في بغداد فقد ظل ملازماً لعلي باشا وأظهر اندفاعاً كبيراً في خدمته، وإن كان ليس من شك بأنه لن يخلص له حالما يجد مصلحة في ذلك. وسار هذا العربي لمجابهة الوهابيين. وأعلم باشا بغداد حالما لاقاهم، فقام الباشا على رأس رجاله يرافقه الكيخيا لمساعدة فارس الجربا. وما أن اجتمعت قوتاهما، حتى باشرا بمطاردة العدو. وحصلت بعض الاشتباكات خسر فيها الوهابيون الكثير من الرجال وولى الباقون الأدبار ليلاً فعاد الباشا إلى بغداد.

ولما علم سعود بهذا التراجع أرسل فرقة أخرى لتجوب الصحراء.

وقد أثر ذلك على إرسال الطرود وانقطعت المواصلات بين البصرة وحلب. وكان يظهر بنفسه بعد كل فشل إلى أن سار باتجاه مكة والمدينة لمحاولة التعويض عن انكسار جيشه بإحراز نصر ما. ولم يلاق صعوبة في السيطرة على هاتين المدينتين، وقام فيهما بجميع أنواع النهب ثم انسحب[٢٩].

وفي بداية عام ١٨٠٤ ظهر الوهابيون بقوة كبيرة في ضواحي الزبير، وهي بلدة تقع على الفرات على مسافة قليلة شمالي البصرة. وكانت المدينة آمنة تماماً. والوهابيون الذين لم يعتمدوا حتى الآن أسلوب إخضاع أي موقع بالقوة، قرروا الاستيلاء على الزبير ليلاً. فتقدموا بهدوء، ولكن رجلاً خرج منها صدفة ليقود قطيعه إلى الساقية، رآهم وأنذر قومه فنجت المدينة. فلما رأى سعود نفسه مرغماً على التخلي عن خطته، أراد أن يخيم مع جيشه على مجرى ماء قريب من المدينة، ولكن حصناً مرتفعاً يحميه سبعة رجال ومدفعان منعه من الاقتراب من المكان المنشود. وكان بإمكان الحصن أن يقاوم ضربات الوهابيين طويلاً لو لم يتح لهم حادث غير منتظر الاستيلاء على موقع عجزوا عن إخضاعه بالرغم من إقدامهم. والسبب هو أن أحد السبعة رجال في الحصن، خاف أن تنقطع عنهم الذخيرة فترك الفتيلة تحترق على الأرض ودخل المخزن للتزود منه، وأوصلت الفتيلة النار إلى بعض المحروقات القريبة مما أدى إلى اشتعال كمية من الذخيرة فأودت بحياة ستة من الرجال السبعة. وشعر الوهابيون بحصول شيء ما فتسلقوا الحصن ليجدوا الستة أمواتاً وليأسروا الرجل السابع، ومن ثم ليخيموا قرب مجرى الماء.

وعندها أرسل سعود نصف جيشه هذا نحو البصرة. وكانت النية معقودة على استعمال الأسلوب نفسه الذي استعمل في الزبير.

ولكن نجاح الوهابيين لم يزد عن نجاحهم في الزبير بحيث اكتفت الحملة بتخريب وسلب ضواحي البصرة. والتقى بعض رجالهم بالشيخ منصور مع بعض الأعراب في الصحراء، والشيخ منصور هو شقيق شيخ المنتفق وهي قبيلة عربية تعيش بالقرب من البصرة، فأسروه وقادوه إلى سعود الذي استقبله بكثير من التكريم. ودعاه رئيس الوهابيين لاعتناق مذهبه، ففضل منصور الحياة على الموت الأكيد وقبل النصح. وكتب المؤمن الجديد إلى أخيه يطلب منه الاقتداء به، واتخذ سعود الأمر حجة لدعوة حكومة الزبير إلى تسليمه المدينة بعد أن قدم لهم الوعود الخلابة. ولم تجد هذه الخطوة نفعاً إذ أعاد حاكم الزبير الرسول إلى سعود بعد أن صلم له أذنيه.

وفي تلك الفترة قتل إمام مسقط، في اشتباك جرى حول ملكية جزيرة البحرين بينه وبين العرب القواسم، وهم وهابيون منذ ثلاث سنوات تقريباً[٣٠].

وبينما كانت هذه الأحداث تجري جنوبي بغداد، كان علي باشا يتقدم بسرعة نحو الحلة لنجدة الزبير والبصرة. ولكن نبأ تراجع الوهابيين أوقف مسيره. وكان سعود قد انسحب بسرعة بعد أن وصلته أخبار عن حوادث سيئة وقعت في الدرعية. وبعد أن تأكد الباشا من هذه الحقيقة، عاد إلى بغداد حيث لم يمكث طويلاً.

تحت ضغط الباب العالي لمهاجمة الوهابيين في الدرعية، قام باشا بغداد، على رأس جيش قوى بالتوجه إلى الحلة في تشرين الثاني، عاقداً العزم على تنفيذ أوامر سيده الكبير. غير أن الحملة تأجلت، إما بسبب الصعوبة في إيجاد الماء الكافي لجيشه أو لاستحالة

الحصول على عدد الإبل اللازمة للعتاد، واكتفى بإرسال سليمان بك على رأس أربعمائة من نخبة رجاله وتحت إدارة فارس الجربا لاستطلاع البلاد.

وتقدمت هذه الفرقة حتى عين سعيد بعد أن تحملت مشاقَّ كثيرة. وكادت المدينة أن تنهب، لولا وجدت من يحميها بشخص فارس الجربا الذي قال عن سكانها إنهم أصدقاء علي باشا، بالرغم من كونهم وهابيين. وخوفاً من مفاجأة سعود لهم، رأى سليمان بك ألاّ يتوغل أكثر من ذلك داخل الصحراء، وعاد أدراجه مع رجاله. ولم تكن مخاوفه من دون سبب، فقد وصل سعود بعد يومين أو ثلاثة من اطلاعه على ما فعل العثمانيون في عين سعيد، لنجدة أتباعه ومعاقبتهم على عدم إعلامه بقدوم رجال علي باشا. فجمع بعض رؤساء هؤلاء العرب وأراد معاقبتهم، فتركته قبائل كثيرة تعد حوالى عشرة آلاف رجل لجأوا إلى علي باشا. ولكن هذه الأحداث لم تؤثر على سعود الذي حول اهتمامه إلى ناحية أخرى وصرف معظم تلك السنة في ترتيب أمور حكومة مسقط.

وكان ابن سيف[٣١] شقيق الإمام الراحل، قد انتزع الحكم من عمه بمساعدة الوهابيين بالرغم من وجود أولاد الإمام الذين حاولوا جهدهم أن يخلفوا أباهم. وعرفاناً بالجميل لما قدم له سعود من مساعدة، يدفع الإمام الجديد سنوياً مبالغ ضخمة ويتظاهر باتباع عقيدة عبد الوهاب.

وارتاحت بغداد لمدة من الزمن من نشاط الوهابيين. وعزي ذلك لأسباب عديدة؛ منها ما يعود لاحتلالهم البلاد المقدسة، أو للأمراض التي تفشت بين إبلهم، أو للمجاعة التي حلت في

بلادهم، أو للارتباك الذي أوقعتهم فيه هجرة كبير مشايخ شمر الذي أتى على رأس عشرين ألف رجل يعرض خدماته على علي باشا. والبعض الآخر كان يتصور أن السبب هو التذمر من سعود، للظلم الذي عامل به والدته بنت الشيخ إذ انتزع منها بالقوة بستاناً كان كلفها مائة ألف قرش، وكذلك الازدراء الذي كان يعامل به أهله بحيث فضل تسليم إدارة قصره للشيخ منصور[٣٢] الذي نال ثقته بالمداهنة. وتم ذلك في الوقت الذي كان ابنه عبدالله، وقد اعترفت به جميع المقاطعات خلفاً لأبيه، يرحل على رأس جيش قوي لمهاجمة الإمام علي، بينما توجه سعود مع جيش لا يقل قوة نحو مكة والمدينة. وقد سببت معاملة سعود لوالدته وأهله اشمئزاز الجميع وأيقظت الحسد في نفوسهم، هذا الحسد الذي تولّد ضده على أثر التصرف الذي تصرفه مع أخوته، يوم تولى الرئاسة، حيث أجزل العطاء لأخوته من أبيه وأسند إليهم الوظائف الهامة بينما أبعد عنه أشقاءه، كما أبعدهم[٣٣] عن الأمور العامة. واجتمع هؤلاء ووجدوا قائداً في شخص عبدالله، عم سعود، الذي لم يكن من الموافقين على سياسة ابن أخيه. ولكن هذه الفرقة لم تمنع سعوداً ولا عبد الله من الحرب، بالرغم من جهلنا الأسلوب الذي اتبع في تهدئتها.

وفي نيسان ١٨٠٦ وصل عبدالله حتى أسوار الإمام علي ليلاً من دون أن يشاهد، ووصل رجاله بواسطة السلالم حتى أعلى السور وبدأوا ينصبون راياتهم بهدوء إلى حين قام أحد رؤسائهم، الذين اعتبروا النصر بات لهم، بإلقاء خطاب فيهم. فنبه صوته الحارس الذي أعطى إشارة الخطر، فركض الجميع إلى السلاح. وارتد الوهابيون على أعقابهم بعد أن خسروا خسارة فادحة. ورأى عبدالله أن زيادة الاعتماد على النفس أبعدت عنه مأربه، فتراجع عدة

كيلومترات عن المدينة. وقام شيخ من أقدم مشايخ العراق يتبعه أحسن رجاله يحميهم مدفع الإمام علي، بالهجوم على العدو بشجاعة كبيرة. واندحر الوهابيون تحت وقع هذه الشجاعة وتركوا أربعمائة أو خمسمائة قتيل في ساحة المعركة برهاناً على ذلك.

وفكر عبدالله بعد انكساره بالتعويض عن هذه الخسارة بالتوجه نحو سماوة. وكانت غايته في البداية أن يفاجىء هذه المدينة، ولكنها كانت بانتظاره، وكان الموت جزاء إقدامه. فقد حاصر المدينة لعدة أيام فخسر أكثر من ألف رجل جراء الهجمات التي كانوا يخرجون بها عليه. وانسحب عبدالله مع رجاله وهو يتألم للخسائر التي لحقت به في هاتين المحاولتين؛ وقرر أن يقوم بغزو مدينة الزبير، لكي يعوض عن هزيمته بانتصار باهر. ولكن الهزيمة واجهته للمرة الثالثة. وفي الهجمات التي قام بها للاستيلاء على هذه المدينة، قتل الزبيريون أكثر من مائتي رجل. فعاد عبدالله إلى الدرعية، يجر أذيال الفشل مع بقية جيشه بينما كان والده ينتصر في مكة.

لم يواجه سعود إلا القليل من المقاومة في مكة والمدينة. وقد أمر فور احتلاله مكة بإقامة الصلاة علناً باسمه بدلاً من اسم السلطان سليم. وأول مرة دخل سعود المدينة المقدسة، ترقب الجميع أن يؤدي ضياع هذه المدينة إلى ثورة في الإمبراطورية العثمانية خصوصاً أن سلطة السيد الكبير كانت تعتمد على حمله بكل ما في الكلمة من معنى لقب خادم الحرمين مكة والقدس. ولكن المفاجأة التي سببها احتلال مكة لم تدم طويلاً، كما أن أثر ما فعله سعود قد اختفى. ومن قلة الاهتمام الذي كان يخلفه وضع مكة كلما كانت هذه المدينة تقع تحت سلطة الوهابيين، يمكن الاستنتاج بأنه إذا كان العثمانيون ينظرون بهذه اللامبالاة إلى احتلالها من قبل أعدائهم، فلا بد لهم

من الاستغناء عنها يوماً ما، من دون أن يمس ذلك سلطة السيد الكبير. إنما يجب الملاحظة على الهامش أن احتلال هذا الموقع، نظراً لوعورة الأرض التي تحيط به، لا مصلحة فيه لفاتح يبغي توسيع رقعة إمبراطوريته، كما أنه يجب القول بأن الوهابيين، في حال سماحهم بالحج، سيكسبون دخلاً وافراً من مكان يضع فيه التعصب الأعمى أغنى كنوز آسيا (من طريق التبرعات والنذور).

ومن السهل، لدى مطالعة هذا التقرير، أن يتبين المرء أن غاية الوهابيين تهدف كما يبدو إلى احتلال سهول العراق الخصبة. ونظراً للقوة التي يتمتعون بها على ضفة الخليج الفارسي اليمني وللتجارة التي يتعاطون، والسلطة التي حصلوا عليها منذ زمن قصير لدى حكومة مسقط، فليس من شك بأنهم، بالرغم من قلة مهارتهم في فنون الدفاع أو الهجوم على أي موقع، سيستطيعون يوماً ما الاستيلاء على هذا الميناء الهام وأنهم سيبذلون جهدهم لاحتلال البصرة والاحتفاظ بها. وإن عمان واليمن والشاطىء الشرقي من البلاد العربية أكثر ملاءمة لإقامة إمبراطوريتهم الناشئة، من شواطىء البحر الأحمر. والوهابيون يمتلكون فيها اليوم أجمل المواقع. فإذا قارنا حاضرهم بماضيهم وقارنا بين يوم ظهورهم ويوم توصلهم إلى التقدم والازدهار، وجدنا أن قوماً عظيماً كهذا بما يتصف به من سرعة الحركة في الصحراء القاحلة، واعتباره التقشف من الصفات الأساسية، ويجعله التعب المتزايد أساس تدريبه، نرى أنه لا ينقصه ليصبح غير قابل للانكسار سوى النظام العسكري لأفراده، وتعلّمه أساليب الدفاع ضد العدو، والرغبة بالتحكم في جيرانه والعلاقات التجارية التي باشر بعقدها مع الأوروبيين الذين يكنون له تقديراً كبيراً. إن هذا سيقوده حتماً إلى غايته. وقد انتشرت فكرة الفتوحات وعمت جميع الطبقات وأحيت ذكرى قوة العرب

السالفة، حتى في قلوب الضعفاء منهم، أمل العودة إلى حكم أمراء من قومهم. وتأييداً لما أقول فقد سمعت بالأمس وهابياً يقول بلهجة التنبؤ «اقترب الوقت الذي سنرى فيه عربياً على عرش الخلافة، فقد بقينا ما فيه الكفاية تحت حكم المغتصب».

ولم أذكر هذه الحادثة إلا لأسترعي الانتباه إلى درجة الغليان الذي يسود هذه البلاد، والطريق التي تواجه بها الوهابية.

وحيث إنه بإمكاني الإسهاب في التعليق على الوهابية، فإنني أورد هنا مقالاً يخصهم استخلصته من إحدى المفكرات التي حررتها أثناء مكوثي في حلب في عام ١٨٠٥ بناء على طلب السيد روسو الابن:

القول أنه كان بالإمكان محو الوهابية في بدايتها، في الوقت الذي كانت فيه لضعفها تتخفى في بعض البيوت المنزوية للقيام بالطقوس التي ابتدعتها لنفسها، وحين كانت بدلاً من أن تذكر في انتصارات بعيدة تفكر فقط في استجلاب أتباع أمر واضح لا يفتقر إلى البرهان. والقول أن كسل الأتراك وإهمالهم تركا مجالاً لهذه الخلية من المنشقين لأن تنمو وتتزايد، من دون محاولة إيجاد الوسائل لتدميرها، أمر مضحك ولا جدوى فيه. فالواقع أنه لا أهمية لمعرفة سبب انتشار الوهابية بقدر الحاجة إلى وقف تزايد أتباعها وتوجيه ضربة قاضية للقوة التي يكتسبونها يوماً بعد يوم. وهذا ما أنوي اقتراحه هنا. فبعد أن أقدّم بكل تواضع، رأيي في فوائد حملة يمكن لعلي باشا أن يجهزها ضدهم، فإني سأتشرف بعرض بعض الخطط التي أعتقد أنها الأفضل والأحق بانتباهكم.

أمر الباب العالي سليمان باشا عدة مرات بالانضمام إلى إمام

مسقط، وأن يحاول بالقوتين المجتمعتين، طرد هؤلاء المنشقين من بلاد اليمن. وهذا الباشا الذي كان يشك في جدوى تحالف كهذا كان يجد دائماً أعذاراً للتملص من تنفيذ أوامر السيد الكبير. حتى أنه وضع أمام أعين بلاط الآستانة بياناً يوضح استحالة قدرته على مهاجمة الوهابيين.

وفي النهاية وجد أنه ليس من العقل مقاومة إرادة سيده أكثر من ذلك فقرر إرسال قائد ليحاصر الأحساء في عام ١٧٩٧. وقد رأيتم نتائج تلك الحملة. وقد أعلم الباب بذلك. وبالرغم من هذه التجربة التي أجراها سليمان باشا، وقد كلفت نفقات باهظة، مما يبين صواب رأيه في عدم جدوى الحرب مع الوهابيين، فإن الباب ثابر على الضغط عليه للقيام بتجربة ثانية إلى يوم وافاه أجله. ومنذ أن تولى علي باشا مكانه، كان القادمون من الآستانة يأتونه برسائل تطلب بشكل خاص تنفيذ الحملة. ونظراً لطبع علي باشا وإخلاصه لدينه والطاعة التي يبديها في إتمام واجباته، يمكن القول حقاً بأنه أصلح رجل لمحاربة أعداء نبيه. ولكن نظراً لبعد المكان وللصحارى المقفرة التي يجب قطعها وجبال الرمال المتحركة التي يقتضي اجتيازها، ونظراً كذلك للأسلوب الآسيوي في شن الحرب، وهو يخالف أسلوب الوهابيين تماماً، ونظراً للأبهة والتراخي السائدين في معسكر باشا بغداد، فإنه ليس لسيادته إذا لازم جانب الحذر أن يباشر مهمة بهذه الأهمية. ولتقدير الوضع حق قدره فلا بأس من مواجهة الموضوع في أحسن احتمالاته.

فلنفترض أن باشا بغداد جهز حملة قوامها عشرون ألف رجل، فإنه يلزمه ستون ألفاً من الإبل قبل أن يبدأ زحفه، في حين أن عشرة آلاف تكفي الوهابيين، للعدد نفسه من الرجال. وهذا الفرق الكبير

يجب ألاّ يدهشنا، لأن شرحاً قصيراً سيبرهن أنه غير مبالغ فيه. فالجندي التركي يتسلّم ثلاث ناقات، إحداها لمطيته والثانية لعدته ولزاد يكفي ثلاثة أشهر، هذا من دون أن نذكر الإبل اللازمة للمدفعية وما يمكن أن يموت منها على الطريق. ويجب الملاحظة كذلك أن إبل العراق وما بين النهرين لا تقاوم التعب والعطش والجوع كما تقاومها إبل اليمن. وعليه تجدون أن هذا الحساب يعطي فكرة صحيحة ومتفقة مع الحقيقة. وهذه الصعوبة وحدها إذا قبلت بوضوح تكفي لإيقاف الباشا. ولكن هذه ليست غايتي، فإني سأتابع زحف عظمته خطوة خطوة في هذه الحملة المفترضة لأصف لكم بشكل أوضح، مختلف مراحلها ولإيصالها حتى أبواب الدرعية، فأصف النتائج الممكنة للظفر الذي قد تحققه من سقوط هذا الموقع. فعلي باشا في وسط الصحراء، والمواصلات مقطوعة عنه، والماء ينقصه لحاجات جيشه العديد، يسمع تذمر رجاله من دون أن يستطيع تهدئتهم ويراهم يمرضون ويموتون من دون أن يقدر على الاحتفاظ بهم أحياء. على عكس الوهابيين الذين يكتفون في حال عطشهم بالقليل من دم الجمل الذي يحملهم. ففي رأس هذا الحيوان شريان يفتحونه ويغلقونه حسب الحاجة. وهكذا فإن الباشا قبل وصوله إلى المكان المقصود، يكون قد فقد الكثير من رجاله. ولو افترضنا أن رجاله وصلوا سالمين ومعافين، فكيف يمكن لجيش، ينقصه الانضباط وتنقصه التغذية والأموال، أن يحتل بلداً محصناً تحصيناً جيداً؟ وإذا استطاع هذا الجيش بالرغم من ذلك احتلاله فما الفائدة التي سيجنيها من ذلك؟ لن يجد فيه كنوزاً ولا أغناماً لأن الوهابيين يخبئون كنوزهم في الجبال. وانهزام هؤلاء في معركة ممكن ولكن التغلب عليهم صعب. فهم سيرسلون قوات جديدة، كما يضعون آلاف العراقيل في طريق انسحابه، بتكرار الهجوم عليه من دون مواجهته بشكل جدي، وباقتياده نحو الجبال وكأنهم يهربون

منه، فيحاصرون معسكره من جميع الجهات ويمنعون عنه كل نجدة وهو على بعد أميال عديدة من بغداد فيجبرونه على التسليم أو الموت. ومع ذلك فإذا استطاع علي باشا بالرغم من كل هذه الاعتراضات، تفكيك شمل الوهابيين واكتساح كل شيء أمامه، فإن هذا العدو سيتفرق ويترك الباشا سيداً للصحراء. وحالما يختفي عظمته يعود هؤلاء إلى السلب والنهب بنفس الوضع ودون أي رادع بحيث لن تثبت هذه الحملة بالنهاية سوى مهارة علي باشا في فن القيادة. ( ) والآن فإلى اقتراح خططي الخاصة.

فالخطة الأولى، وهي أكثرها حذراً وحكمة، تتناسب والوضع السياسي لبغداد، وتتلخص بالوقوف موقف الدفاع، وتحصين البصرة جيداً وكذلك الأماكن المعرضة لهجمات الوهابيين، وبإنشاء حصون صغيرة في الأماكن التي تقتضيها السلامة العامة. وهذه التدابير تهدئ بال العرب الذين يرتجفون لذكر الوهابيين، وتصد هؤلاء لأنهم سيجدون مقاومة عنيفة حيثما توجهوا وسيقاسون الهزيمة والخسارة. وقد يكون من المفيد وضع قوة بحرية في الخليج الفارسي تفرض وجودها وسلطتها على بلاد الشواطىء العربية التي قادها خوفها من الوهابيين إلى تغيير مبادئها وإلى عدم الاعتراف بعلي باشا كسيد لها.

أما الخطة الثانية فتكون بتجهيز جيش قوامه عشرة آلاف رجل مجهزين تجهيزاً جيداً ليسيروا على نفس الطريق إلى الأحساء، بقيادة الكيخيا، لأن الباشا لا يمكن أن يبتعد لهذه المسافة عن عاصمته ولا يملك الوقت اللازم لهذه الحملة من دون أن يقوم اضطراب ما في حكومته. كذلك فإن وجوده سيظل ضرورياً لجباية الضرائب، ولتكوين المخازن في البصرة لإرسال الإمدادات والمؤن للجيش.

ويقوم باشوات الشاطىء الشرقي من البحر الأحمر، ومصر، وسورية، بالتقدم من جهاتهم، على رأس قواتهم، إلى القرب من مكة. ويتم إعلام الجيش في بغداد عند ذلك، بعدد الأيام التي ستلزمهم للوصول إلى الدرعية، وعن الساعة التي سيبدأون فيها مسيرتهم. وسيحاول أن يحدد مسيرته بحيث يصل الجيشان في اليوم نفسه. تبعد الدرعية مسافة ١٦٠ ساعة عن مكة و٦٠ ساعة عن الأحساء، ويمكن تحقيق الالتقاء في الوقت المحدد، بمساعدة كشافين مهرة. ويكون الجيشان تحت قيادة عبدالله باشا حاكم دمشق. وبهذا الترتيب لا يمكن الشك في نجاح هجومهم وفي الأمل الأكيد بأن يصلوا مع رؤساء الوهابيين إلى ترتيبات سلام.

والخطة الثالثة والأخيرة هي اللجوء إلى سلطة دولة أوروبية، التي تقترح أولاً على المنشقين شروط صلح وتحالف من قبل السيد الكبير. وتضمن الدولة الأوروبية صدق هذه العروض. ولدى رفض الوهابيين لها، تعلن الحرب عليهم، وبرأيي أن هذا الإعلان سيكون تأثيره أكبر من تأثير جيش قوامه أربعون ألف تركي على أبواب الدرعية.

الهوامش

(١) لم يذكر قصة هذا الحلم سوى المؤرخين الأجانب وكان جان ريمون أولهم. فالقصة إذاً منقولة عنه إجمالاً. ولما كنا لا نشك في صدق جان ريمون، فلا بد أن القصة كانت تروى في زمانه في مجالس بغداد، وهي رواية لا تقدم ولا تؤخر في الوقائع التاريخية.

(٢) يفهم من رواية جان ريمون أن الشيخ عبد الوهاب هو أول من بشر بدعوة التوحيد، وقال كورانسي الشيء نفسه. ولكن المؤرخين العرب ذكروا أن عبد الوهاب كان يحاول كثيراً الحد من جماح ولده وكان يأمره بالاعتدال، ويخشى عليه. (راجع ابن بشر).

(٣) القول بأن محمد بن عبد الوهاب كان يدّعي النبوة لا أساس له من الصحة كما هو معروف، ولعل جان ريمون قد سمع هذا من بعض سكان بغداد المعادين للإصلاح، أو لعله كان يقصد بكلمة «نبي» تمييز الشيخ محمد عن غيره علماً بأن اللفظة باللغة الفرنسية لا تعني دائماً نبياً مرسلاً.

(٤) لقد وقع جان ريمون في الخطأ الذي وقع فيه الكثير من المعاصرين لأول أيام دعوة التوحيد، ولا بد أن الأتراك كانوا يشيعون في ذلك الوقت أن الوهابية تعني التنكر للحديث وتنفي صفة النبوة عن محمد بن عبدالله.

(٥) يطلق جان ريمون اسم اليمن على بعض أجزاء الجزيرة العربية، وعلى الأخص القسم الجنوبي من نجد. ويفعل ذلك أيضاً كورانسي في كتابه. ولعل اليمامة هي المقصودة في الكتابين وقد التبست عليهما التسمية.

(٦) ليس ما يثبت أن محمد بن عبد الوهاب كان يحاول التقرب من المتنفذين في المدن الكبيرة كالبصرة أو بغداد أو غيرهما، أو إقناعهم بالعمل معه في نشر الدعوة.

(٧) المقصود طبعاً هو محمد بن سعود، ولا نعتقد أن في الأمر خطأ حيث إن العادة المتبعة في الكثير من البلدان، حتى اليوم، هي إطلاق اسم الكنية على الشخص وكأنها اسمه الخاص، ونورد على سبيل المثال لا التشبيه، أن معظم

الصحف العالمية تطلق اليوم اسم ناصر أو عبد الناصر على جمال بن عبد الناصر.

(٨) ويسميهم كورانسي العتوب، ولعل المقصود منها عتيبة، وقد اختلطت عليه الأسماء. أما العتوب فهم بنو عتبة وديارهم البحرين وظلوا مدة طويلة يحاربون الوهابيين إلى أن تم إخضاعهم في عهد سعود بن عبد العزيز.

(٩) بقي النص مبهماً في الأصل الفرنسي، والصحيح أن عملاء عبد العزيز، كانوا يفرزون الخمس، وأما الباقي أي الأربعة أخماس فكانت توزع بين الرجال فينال الراجل منهم سهماً والفارس سهمين.

(١٠) في الأصل الفرنسي كايا وقد عربناها إلى كيخيا، وهي محرفة من كتخدا ومعناها معاون الباشا. وتجدر الإشارة إلى أن الكتب العربية القديمة تسميه كيا وأحياناً كدخدا وكهية وكخوة (راجع ابن خلكان مثلاً).

(١١) لعل هذا خطأ مطبعي إذ لم نجد أثراً لقبائل بهذا الاسم، وأقرب ما وجدناه قبيلة العبيد، وهي القبيلة التي يذكرها كورانسي في كتابه. وهي من قبائل الزبيدية، ومركزها في لواء كركوك، كان يرأسها محمد بن عبد الله الشاوي. ولعل المقصود بالبنيت عشيرة البيات وهي عشيرة تركية بعض أفرادها من السنّة وبعضهم رفضة ويتكلمون العربية لاختلاطهم بعشيرة العبيد المجاورة لهم في لواء كركوك. ويذكر ابن بشر أن الذين اشتركوا في هذه الحملة كانوا من آل بعيج والزقاريط وآل قشعم وغيرهم.

(١٢) الواقع أن سليمان باشا نفسه حرض علي آغا على قتل الكيخيا. وكان جزاء علي آغا حلوله محل الكيخيا المقتول وزواجه من ابنة سليمان باشا (وفي رواية عثمان بن سند من ابنة المغدور أحمد كيخيا نفسه). ولعل سليمان باشا كان ينوي بعد ذلك التخلص من علي آغا، ولكنه عدل عن ذلك خوفاً من أتباع هذا الأخير.

(١٣) لم نجد ذكراً لمحمد بن شاوي في ابن بشر. ولكن كورانسي يروي قصة جان ريمون نفسها عن مساعدة محمد الشاوي للوهابيين. وقد وجدنا الرواية نفسها في «مختصر تاريخ الشيخ عثمان بن سند البصري»، المسمى «مطالع

السعود بطيب أخبار الوالي داود» المطبوع في بومباي عام ١٣٠٢ وقد كتب على الغالب حوالي عام ١٢٤٠. وأشير إلى هذه القصة كذلك في كتاب «عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد» لإبراهيم الحيدري.

(١٤) كان القوم بقيادة سعود بن عبد العزيز وقد نزلوا (تاج) وهو ماء بديرة بني خالد. وقتل في هذه المعركة خالد بن ناصر أخو حمود. وعرض سعود الصلح على الكيخيا بكتاب نثبت نصه كما ورد في كتاب «مطالع السعود»:

«من سعود بن عبد العزيز إلى علي: أما بعد فما عرفنا سبب مجيئكم إلى الحساء. أما أهل الحسا فإنهم روافض ونحن جعلناهم بالسيف مسلمين. وهي قرية ليست بداخلة تحت حكمكم، والذي يحصل منها قليل بالنسبة إلى تعبكم وإلى مصاريفكم في هذه السفرة فقط. وما كان بيننا وبينكم من المضاغطة إلا ثويني وقد لقي جزاءه. فالآن مأمولنا المصالحة وهو خير لنا ولكم والصلح سيد الأحكام».

وقبل الكيخيا الصلح ورحل بعد أن عزا خسائره إلى المعارك بينما يظهر بالواقع أن اختلاساً لحق بالأموال المخصصة لجيشه فخاف الحساب وتستر على المختلس.

(١٥) لم يقبل سعود بدفع نفقات الحملة، خصوصاً أن جيشه كان المنتصر، وأن علي كيخيا قد طلب ذلك فعلاً فأجابه سعود بما معناه: «سأعرض الأمر على والدي في الدرعية، ولعل الباشا يكتب له في هذا الموضوع أيضاً». ويبدو أن الموضوع قد توقف عند هذا الحد.

(١٦) الخزاعل قبائل من الشيعة وهي عديدة وتسكن شواطىء الفرات إلى الجنوب بالقرب من الديوانية. وكانت الديوانية، التي لم تبن إلا في عام ١٢٧٠، موقع دار ضيافة رؤسائهم.

(١٧) كان عبد العزيز بن عبد الله بن شاوي الحميري متوجهاً لأداء فريضة الحج، ومر بطريقه على الدرعية حيث قابل سعوداً وكلمه بشأن حادثة الخزاعل. ويقال إن عبد العزيز انضم إلى الحركة الإصلاحية وتبعه بعض قومه، ونحن نميل إلى تصديق ذلك. وكان له ولد أسماه سعوداً. وعلم علي باشا بأمره

وأمر أخيه محمد فأمر بقتلهما وتم ذلك بعد توليه الباشوية في عام ١٢١٧.

(١٨) لا شك أن الرواية غير صادقة، وقد رددها كورانسي، ولعلهما سمعاها مع مثيلاتها من الروايات التي تختلق في مثل هذه المناسبات. والواقع أن الأوامر كانت تصدر عن عبد العزيز بأن يرفعوا السيف عمّن لم يبلغ الحلم وعن كل امرأة وشيخ مسن.

(١٩) تروي تواريخ الشيعة أن قبر علي بن أبي طالب قد أخفي، خوفاً من بني أمية وأن جعفر كان يعرف موضعه وكان يدل عليه الخواص من أصحابه. أما قبر الحسين فكان موقعه في كربلاء ومعروفاً منذ البداية.

(٢٠) لعل المقصود هو المتوكل، وهو الذي كان يضطهد الشيعة في العراق وأمر بهدم القباب في عام ٢٣٦هـ. ولم يروَ أنه أمر بلعن علي أو الحسين.

(٢١) يقصد المنتصر الذي أعاد البناء وأباح زيارة قبر علي والحسين.

(٢٢) استولى الشاه إسماعيل الصفوي على العراق عام ٩١٠ وظل فيها إلى أن أخرجه العثمانيون عام ٩٤١. واسترجعها الشاه عباس الأول عام ١٠٣٢، ثم عادت إلى الحكم العثماني في أيام مراد خان الرابع عام ١٠٤٥.

(٢٣) يقصد بلدة النجف.

(٢٤) يقول كورانسي إن منصب شريف مكة كان من حق عبد المعين وقد أزاحه أخوه غالب واحتل مكانه. ويذكر ابن بشير أن سعوداً عين عبد المعين مكان أخيه عندما انهزم هذا الأخير إلى جدة. ولكن غالباً أعيد إلى منصبه بعد مبايعته سعوداً، مما يدل على أن المنصب كان له شرعاً وليس لأخيه عبد المعين.

(٢٥) لم يترك الوهابيون مكة بعد دخولها لأي فترة من الزمن. وما قيل عن أهل مكة وطردهم المرابطة لا يتعدى كونه شائعة نشرها الأتراك في البلاد حفاظاً على مركزهم وسمعتهم التي تدهورت بخسارتهم مكة المكرمة.

(٢٦) لا يذكر ابن بشر أي خبر عن محمد بن شاوي، ولا ندري سبباً لذلك، مع أننا لا نشك بصحة وجوده وتأييده لدعوة التوحيد وأخيه عبد العزيز. وكان الكيخيا قد غضب عليهما ولكنه عجز عن إدراكهما في حكم سليمان باشا.

فما أن آلت الباشوية إليه حتى أمر بقتلهما.

(٢٧) تقول رواية ثانية أن الرجل كان رافضياً من سكان كربلاء أراد الانتقام لمقتل أولاده، ولما لحق بمقام الإمام الحسين من تخريب.

(٢٨) لم يكن سعود موجوداً لدى اغتيال عبد العزيز، بل كان عبد الله بن محمد بن سعود بالقرب منه، ويقال أنه أصيب بجرح بليغ وكان أول من طعن القاتل الذي تكاثر عليه القوم وقتلوه.

(٢٩) تم دخول مكة في أول عام ١٢١٨ سلماً بعد أن انهزم الشريف غالب.. ولم يتعرض جيش سعود للسكان بل «أعطاهم سعود الأمان وبذل لهم من الصدقات والعطاء» ولكنه أمر بهدم القباب والمشاهد التركية. وفي عام ١٢٢٠هـ. بايع أهل المدينة سعوداً «على دين الله ورسوله والسمع والطاعة» فدخلها سلماً. ولم ينسحب سعود من مكة ولا من المدينة في أي وقت بعد أن دخلهما. وما يذكر خلاف ذلك فهو من أثر الشائعات التي كان يطلقها الأتراك في ذلك الحين للتغطية.

(٣٠) قتل سلطان بن حمد بن سعيد في سفينة صغيرة كان انتقل إليها وهو عائد بحراً من البصرة. وصادف القواسم تلك السفينة فرموها من دون أن يعرفوا من في داخلها إلا بعد أن قتل.

(٣١) المقصود بدر أخو الإمام الراحل سلطان. ولسنا ندري من أين جاء ريمون بهذه التسمية، ولعله كان يقصد بن سعيد. والمعلوم أن بدراً هو ابن محمد بن سعيد.

(٣٢) الشيخ منصور هو شقيق حمود بن ناصر شيخ المنتفق، وكان قد أسره المسلمون بالقرب من البصرة في الحملة التي قادها حمود على البصرة والزبير عام ١٢٠٨. ويقال أن سعوداً أراد ضرب عنقه ثم عفا عنه.

(٣٣) يغلب الظن أن الرواية مختلقة من أساسها إذ لم يرد لها ذكر في أي من كتب التاريخ الأخرى، ولعل أساسها في المعاملة الشديدة التي كان يعامل بها سعود أولاده، وقد ذكرنا ذلك في مكان آخر.

الفصل الأول

أصل الوهابيين
قصة الشيخ محمد وابن سعود

منذ أجيال بعيدة والبدو، أي العرب الرحل، يقطنون اليمن[1]. فمن تلك البلاد خرجت القبائل العديدة التي تستوطن قسماً من آسيا كما تستوطن الصحراء الكبرى في شمالي أفريقيا. وفي تلك البلاد ولد محمد وأولئك الرجال العظام الذين شهروا اسم الإمبراطورية العربية.

وفي اليمن ظهرت جماعة الوهابيين. وهؤلاء العرب الذين بلغوا اليوم من المكانة ما بلغوا، لم يكن لهم وجود منذ نصف قرن. وقوتهم التي اكتسبوها بهذه السرعة هي ضمانهم للتوسع في المستقبل.

إن جهل بعض الشرقيين وإهمالهم كل ما لا يدر لهم فائدة آنية، يعرض للشك المعلومات الصادرة عنهم، فضلاً عن صعوبة التوصل إلى تلك المعلومات. لذلك لا يمكن الوثوق إلا بالمعلومات التي

تلتمس شخصياً. والوهابيون الذين يعيشون في وسط الصحراء العربية، تفصلهم هذه الصحراء عن بقية آسيا، وهم وحدهم قادرون على اجتيازها. لم يمر بهم أي مسافر أوروبي ما عدا نيبور وفولني اللذين يتحدثان عنهم بشكل غامض. وهكذا فإن كتابة تاريخ أول أيام هؤلاء الرجال الجدد تقف عند عقبتي بُعد المكان والزمان. وقد تعترض اجتياز هاتين العقبتين صعوبة كبيرة في أوروبا، أما في الشرق فمن المستحيل اجتيازهما.

وهكذا فبالرغم من أن عهد ظهور الوهابيين ما زال قريباً منا، فإنه من الصعب تحديد التواريخ بشكل دقيق، ومن الأصعب معرفة جميع تفاصيل الأحداث التي أتت بهم.

يتألف الشعب العربي من مئات القبائل المختلفة. وهذه القبائل كانت منقسمة على بعضها، لا تفتر عن القتال فيما بينها، وغالباً ما يكون القتال من دون سبب، بل من دون أي نتيجة ذات أهمية، فليس في معاركهم من حادثة جديرة بالحفظ، ولعلها كلها كانت تصبح من المنسيات فور نهايتها. ومع ذلك فإن الوهابيين مدينون نوعاً ما بوجودهم لهذه المعارك التافهة. وهذا السبب الأولي لنشأتهم سيجهله التاريخ دائماً. بيد أن هنالك سبباً آخر كان له الأثر المباشر والفعلي على نشأتهم. وهذا السبب يزداد تأثيره يوماً بعد يوم ويظهر جلياً في تاريخهم.

لعل الديانات المختلفة هي المؤسسات الإنسانية الأكثر عرضة للتعديل. وقد تبدأ بطقوس بسيطة، وبأخلاق صافية، تهدف إلى ضم مؤيدين لها. وهكذا يثير الداعي إليها الحماسة بين أتباعه، وتستمر هذه الحماسة عند خلفائه إلى أن يدخل عليها التعديل الذي يتلاءم مع

بعض المصالح الشخصية. ويتراكم هذا التعديل مع مرور الزمن، ولا تحدُّ من تزايده حدود بحيث لا ينقضي وقت طويل إلا ويتغير شكل الديانة وأهدافها ولا يبقى منها سوى اسمها. فإذا عاد مؤسسها على الأرض فإنه لن يجد من الديانة التي دعا إليها غير الاسم.

والدين الذي دعا إليه النبي محمد البسيط في نشأته، تعرض في الماضي وما زال يتعرض لهذا التعديل. فقد شوه عدد كبير من المفسرين معاني القرآن بتفسيرات غريبة، وقامت في أماكن عديدة مزارات اشتهرت بأعاجيب مضحكة. وجعلت الخرافات من أصحابها وسطاء بين الله الأحد الذي بشر به محمد وبين الإنسان. وزاد عدد هؤلاء لدرجة أخفت وجه الله الحقيقي عن عيون عباده.

لقد احتفظوا حقاً بالوضوء وأوقات الصلاة الخمس وغيرها من الطقوس الدينية، ولكنهم أدخلوا عليها زيادات شوهتها. فالصلاة التي ينال صاحبها أكبر الثواب، ترتكز مثلاً على ترديد اسم الله جهراً طوال ساعات، والأتقى هو من يردد هذا الاسم أكثر وأسرع من غيره. وليس أغرب من منظر المشايخ الذين يقومون في الأعياد بالتباري بالصريخ باسم الله بشكل مخيف. وقد تبحّ أصوات الكثيرين منهم فيضطرون إلى السكوت ويتركون قصب السباق إلى القديس ذي الرئتين القويتين الذي يحاول مواصلة الصراخ لبعض الوقت بعد سكوت جميع منافسيه. وأخيراً يأخذه التعب، فيقع في وسط الجماعة المتدينين والعرق يتصبب منه فيرفعه هؤلاء ويجعلونه منتصراً. وتضج أهم المساجد كل يوم جمعة بالصراخ الذي يستدعيه هذا السباق الغريب، ويحتفظ الشيخ الذي قدسته رئتاه بقداسته، بواسطة غيبوبات كثيراً ما تسبب العجب بل الرعب لمن يشاهدها من المسيحيين[٢].

وليس هذا السبيل الوحيد للظهور، بل لعل الجنون كان السبيل الأفضل إذ لم يفت أي أجنبي ملاحظة الأعمال الغريبة يقوم بها يومياً بعض المجانين المعروفين والحائزين على احترام الناس. ولا يجرؤ أي امرئ اعتراض نزواتهم التي تعتبر إلهاماً سماوياً. فهم يدخلون عراة في كثير من الأحيان، حيثما شاءوا دون اعتراض، ويجلسون على مقعد الباشا نفسه، يكيلون له الشتائم، دون أن يجرؤ على إظهار اعتراضه. وهكذا فإن أقبح العادات، وأشذ التطرفات، قد حلّت لدى المسلمين مكان التقوى الحقيقية، في بساطتها وحكمتها. وإن وجد من يستهجن هذا الوضع بينه وبين نفسه، يمشي بالعلن مع الأكثرية، ويبدو وكأنه ينساق مع الرأي العام.

وقد طرأت بدع أخرى زيادة على هذه التصرفات السخيفة، في البلاد الشرقية القريبة من ديار الوهابيين. والحكم العثماني المستبد في البلاد، يقبل هذه السخافات ويشجعها، وإن كانت تسيء إلى الكثيرين، وينسبها إلى الدين، لأن الدين هو الكابح الوحيد في يد الدولة المستبدة.

من هنا تتبين السهولة التي يمكن أن تنتشر بها حركة جديدة تهدف إلى الحد من هذه التصرفات، فالشعب غالباً ما يكون غير راض عن وضعه الراهن، فيندفع مع كل تبديل يشعر أن فيه نهاية لما يراه، من مساوئ ولكنه لا يرى ما يأتي به التبديل من مساوئ جديدة قد تكون أشد وطأة. ولا بد لإصلاح يهدف إلى الحد من استغلال السلطة، وإلى نبذ الرفاهية، وإلى إعادة المساواة، أن يلاقي حماسة بين العامة. فهو يقلل عند الفقير خيبة الأمل، بانتزاعه من الغني قسطاً من استمتاعه بغناه.

ومن وجهة النظر هذه، كان بإمكان الوهابيين أن يتقدموا سريعاً في

الشرق. وهكذا فقد ظهر، لبعض الوقت، أنهم لن يهملوا هذا السبيل إلى النجاح. فقد قام عبد العزيز بإلغاء الإتاوة وشجع التجارة. ولكن الصفة التي اتصف بها الوهابيون في الشرق، أضرت بهم في بلاد كثيرة، وهذه الصفة هي التعصب، فالوهابيون متعصبون إلى أقصى الحدود. فهم يعتبرون الوثنية جريمة ويعاقبون عليها بالقتل. وكانوا يعتبرون بعض المسلمين المارقين وثنيين مشركين بالله.

لم يسيروا على هذا المنوال في معاركهم الأولى مع العرب، ولكنهم اتبعوه بإخلاص في كل غزواتهم داخل البلاد العثمانية. وكانوا أكثر تساهلاً مع العرب، الذين يربطهم وإياهم أصل واحد، بينما بلغ بأسهم أقصى الحدود مع العثمانيين. ولعل ذلك يعود لحكم العثمانيين المستبد، وهكذا فقد أعلنت حرباً حتى الموت، كانت فيها المقاومة العنيفة، نتيجة القسوة المتناهية. وكان اتهام الوهابيين بالتعصب الحجة الأساسية في مقاومة إصلاحهم.

وفي ما تقدم مفتاح جميع الأحداث التي كوّنت تاريخ هذه الجماعة، منذ نشأتها حتى أيامنا هذه. ففيها تفسير لنجاحهم في البلاد العربية، وإخفاقهم في البلاد الواقعة عبر الصحراء التي تفصل بينهم وبقية آسيا. وقد يمكن، اعتماداً على هذه الاعتبارات، التنبؤ بما ينتظر الوهابيين مستقبلاً. إنما يجب أن نلازم جانب الحذر في هذه الناحية لأننا ما زلنا نجهل هؤلاء العرب، وقد لا ترتكز استنتاجاتنا على أساس صحيح، ويبقى المستقبل وحده الكفيل إما بإبراز صحتها، أو بتكذيبها.

لم تكن جماعة الوهابيين بما لديها اليوم من قوة موجودة منذ نصف

قرن. أسسها شيخ عربي يسمى الشيخ محمد، وينسبه العرب إلى عبد الوهاب بن سليمان. وهنالك حديث شائع بينهم أن سليمان هذا وهو عربي فقير من قبيلة نجدية صغيرة، رأى ذات ليلة في ما يرى النائم أن شعلة[٣] خرجت من جسمه، وانتشرت في الحقول. وكانت تحرق في طريقها الخيام في الصحراء والمساكن في المدن. فخاف سليمان من هذا الحلم واستفسر عنه مشايخ قبيلته. فأعلمه هؤلاء أن ولداً له سيأتي بـــ «مذهب» جديد، يدخل فيه عرب الصحراء، ويسيطر على سكان المدن. وقد تحقق هذا التفسير بالفعل، ليس بولده عبد الوهاب، بل بحفيده الشيخ محمد.

وسواء كان الحلم حقيقة، أو أنه روي فيما بعد من قبل محمد نفسه، فإن المصلح الجديد قد استغل ما خلفه هذا الحلم من استعداد. وبما أنه كان من قبيلة النجديين الذين ينتمون إلى تميم، وهي من أقوى العشائر وأكثرها عدداً بين عرب الصحراء، وكان ينحدر مباشرة من سلالة النبي محمد، فإن ذلك ساعد في علو خطوته لأنه ليس لدى هؤلاء العرب أنبل وأشرف ممن انتمى إلى عائلة الرسول.

ابتدأ الشيخ محمد باعتماد النص الحرفي للقرآن. فقال إن هذا الكتاب كتاب الله، وأنزله من السماء، أبلغه للناس بواسطة محمد. وقد اعتمد التعاليم الذي علمها وطبق المبادئ التي احتواها. ولكنه باعتماده هذا الكتاب، جعل مضمونه حدود حركته الجديدة، ورفض الأحاديث المقبولة عند المسلمين[٤]. وهكذا كان الشيخ محمد مصلحاً لدين محمد وليس مؤسساً لديانة جديدة. فالوهابية مصدرها الأساسي هو القرآن في صفائه الأول.

وأول تعاليم القرآن هي الإيمان بالله الواحد الأزل القادر الرحيم.

وهذا ما علمه الشيخ محمد. وكان غيوراً على وحدانية الله لدرجة جعلته يرفض كل شفاعة بين الله وبين الناس، لأي كائن له امتياز على الناس، أو لأي إنسان يتصف بما يشبه الألوهية. وهكذا حرم تكريم الأولياء والأنبياء. كما حرم التبريك لأي من الناس الذين أعطتهم الخرافات احدى هاتين الصفتين. ولم يعترف بأي امتياز سوى امتياز التقوى والحكمة. وقد اعتبر محمداً حكيماً، ولم يرد له أية صفة أخرى، ونصح بعدم زجّه بصلوات هي من حق الله وحده، بل تركه يتمتع في الآخرة بجزاء صلاحه في الدنيا.

وقد نبذ الشيخ محمد، بنفس الشدة، كل أنواع التكريم سواء للمسيح أم لموسى أم لغيرهما من الأنبياء ممن يعترف المسلمون بهم. وأعلن استياء الله من الأتراك لما يبدون نحو محمد، وبيّن أن هدفه هو محو هذه الوثنية والعودة بالناس إلى عبادة الله وحده. وأضاف أن المسلمين الذين يبقون على التعاليم السائدة، ليسوا سوى وثنيين يستحقون القتل لأنهم خاطئون بحق الجلالة، ومدنسون للعبادة التي هي من حق الله.

وفي مدة قصيرة حصل على تأييد بعض الأتباع من قبيلته فلم يكن عددهم ذا أهمية، وكان لا بد من جمع قوة أضخم، لنشر تعاليم الإصلاح. وشعر محمد بذلك فخرج من اليمن وتجول في سورية وأطراف الفرات. وكان يبحث عن باشا أو عن رجل قوي يدعمه بسلاحه[٥] وبماله. وبعد أن نبذ في مكة وفي دمشق وطرد من بغداد ومن البصرة، عاد إلى بلاد العرب حيث استقبله ابن سعود أمير الدرعية والأحساء، استقبالاً حسناً.

من المعلوم أن البدو يشكلون قبائل عديدة تجمعها بالظاهر تقاليد

متشابهة، بينما تفرقها هذه التقاليد نفسها، حيث تمنع التزاوج بين قبيلة وأخرى. وفي هذه العادة أصل استقلالهم، فهي تحدد في مجال ضيق جداً عدد أفراد كل قبيلة، ويشدهم رباط الدم إلى بعضهم. وهكذا فإن القبيلة ليست سوى عائلة كبيرة يمثل شيخها المنتخب صفة الأب. وليس لهذا الشيخ أي سلطة سوى حل الخلافات التي تنشأ بين أفراد القبيلة، وهو عرضة للتبديل في كل وقت.

وبعض هذه القبائل متحد منذ زمن غير معلوم، بينما يفصل النزاع المتواصل بين بعضها الآخر. وفي حال الاتحاد فإنها تحمل اسماً واحداً يطلق على المجموعة التي تصبح شعباً خاصاً ضمن الشعب العربي الكبير. وقبيلة النجديين من هذه القبائل، اشتهرت في الشرق بخيلها، وهي أجمل وأرق الخيول على الإطلاق. وكان سليمان جد الشيخ محمد ينتمي إلى قبيلة صغيرة من النجديين. وكان الفقر الشديد يحل بهذه القبيلة التي تناقص أفرادها كثيراً قبيل ولادة الشيخ محمد. ومنذ ذلك الوقت اتحدت في اليمن مع قبيلتين أخريين هما قبيلتا العنزة والعتوب[٦] وكلتاهما في نفس الحالة من الفقر والقلة. فلما رأت هذه القبائل الثلاث أن دمارها قريب فضلت ترك عادات أجدادها وتصاهرت وأصبحت قبيلة واحدة. وضمت هذه القبيلة إلى أفرادها العرب المشردين فأصبحت كبيرة العدد بحيث أمكنها بسط سلطتها على عدد من الجماعات الرحل في اليمن. وخلال مدة قصيرة، زادت فتوحاتها مع زيادة عدد أفرادها. وفي مدة عشرين سنة، أخضعت عربستان واحتلت الدرعية والأحساء، وقد اندمجت مع من أخضعت من قوم، وشكلت عشيرة قوية فرضت احترامها على القبائل العربية التي كانت لا تهتم بها قبل ذلك.

وهكذا ظهر وسط القبائل العربية، وفي قلب بلادهم، شعب جديد

وجد في تعاسته نفسها منهل عظمته. واختار هذا الشعب محمد بن سعود رئيساً له، وهو من قبيلة ربيعة، واتخذ لقب أمير الدرعية والأحساء. وإلى ابن سعود هذا اتجه الشيخ محمد لدى رجوعه من اليمن.

وكانت الظروف مناسبة لاستقباله. فابن سعود ووراءه شعب صهرته المعارك كان يرغب وصل انتصاراته بانتصارات جديدة. فوجد في مبادئ المعلم حجة لغزو القبائل العربية، وكانت بيده القوة اللازمة لإخضاعها. لذلك تبنى الدعوة الجديدة، وكان تعلقه بها سبباً في غبطة الكثير من أتباعه ممن ينتمون لقبيلة الشيخ محمد، وكان يؤيد هذا الأخير منذ زمن طويل. واقتدى بهم وبأميرهم بقية القوم بحيث وجد المصلح نفسه على رأس شعب كامل يتبع تعاليمه.

في تلك الحقبة من الزمن تم تنظيم جماعة الدعوة الجديدة واتخذت شكلاً طبيعياً. واتخذ المصلحون لأنفسهم اسم الوهابيين[٧]، نسبة لعبد الوهاب والد الشيخ. واحتفظ هذا بلقب الشيخ. كما اتخذ ابن سعود لقب إمام الوهابيين. وهكذا اقتسما السلطة الدينية والدنيوية، وظل هذا التمييز سارياً منذ ذلك الحين لدى سلالة ابن سعود والشيخ محمد.

وأصبحت الدرعية عاصمة الإمبراطورية الجديدة، وهي مدينة تقع على مسيرة اثني عشر يوماً إلى الجنوب الغربي من البصرة التي تفصلها عنها الصحراء. وتمتاز الدرعية بمنازلها المبنية من الحجر، بينما بنيت الأحساء وغيرها من مدن اليمن من أغصان النخيل. وفي الدرعية باشر ابن سعود بتحقيق مشاريعه التوسعية، ولم يهمل أي شيء في سبيل إنجاحها. فأخضع جنوده المعتادين على المشقة إلى

تدريب قاسٍ وجعلهم أصلب عوداً وأكثر تحملاً للمشقات. وألغى الخيل[٨] من جيشه واستعاض عنها بالإبل. وهذا الحيوان يضاهي الخيل بسرعته ويمتاز عنها بقوته، وكأنه خلق ليستوطن الصحراء التي قد لا تكون صالحة للإقامة بدونه. وأمر ابن سعود أن يمتطي كل جنديين ناقة واحدة سميت مردوفة. وأنقص غذاء الرجال وعلف الإبل بحيث أمكنهم حمل مؤونة عشرين يوماً دفعة واحدة. وهكذا أمكن لجيوش عديدة أن تنتشر في الصحراء وأن تباغت العدو وهو على غير استعداد.

وكان ابن سعود قد أخضع قبائل عربية كثيرة حين وافاه الأجل وسط انتصاراته، فخلفه عبد العزيز الذي أكمل ما كان أعده من مشاريع. فهاجم القبائل العربية التي لم تكن تخضع له، وكان عدد رجاله يفوق عدد رجال أي قبيلة، ولم تستطع القبائل المعادية له التحالف لما بينها من خلافات، أو لبعد المسافات بين قبيلة وأخرى. وكان الوهابيون ينقضّون على حين غرة على القبيلة التي يريدون إخضاعها ويتقدم رسول من عبد العزيز يحمل القرآن بيد والسيف باليد الأخرى، مع رسالة من سيده، تتضمن الشروط التي يجب العمل بموجبها.

وما زالت النصوص الحرفية لهذه الرسائل محفوظة، وفيها لهجة الإيجاز والبساطة التي اعتمدها عادة جميع المصلحين في جميع الأديان وفي كافة الأزمان:

«من عبد العزيز إلى قبيلة ... سلام. واجبكم يدعوكم إلى الإيمان بالكتاب الذي أرسل لكم. لا تكونوا وثنيين كالأتراك الذين يشركون بالله. إذا آمنتم نجوتم، وإلا فسنقاتلكم حتى الموت».

ولم يكن بالإمكان مقاومة هذه التهديدات التي يدعمها جيش كبير، فاستسلمت القبائل العربية الواحدة تلو الأخرى. واعتمد البدو جميعاً قانون الشيخ محمد، وفي مدة قصيرة أصبح أتباع ابن عبد الوهاب يغطون الصحراء الواسعة التي تمتد من الخليج الفارسي حتى البحر الأحمر ومن بلاد العرب السعيدة حتى دمشق وحلب.

ولم تبق هذه الانتصارات غير مثمرة بالنسبة لعبد العزيز، فكان جزاء المقاومة القتال بدون تمييز والاستيلاء على أموال المقاومين. أما إذا أطاع هؤلاء قوانين الوهابيين فكانت تطبق بحقهم الزكاة على أموالهم وفقاً لنصوص القرآن. ولم تفرض هذه على المال والعتاد والمواشي فقط بل كانت تتعداها إلى الرجال، فكان عبد العزيز يفرض الخدمة من دون أجر على واحد من كل عشرة رجال. وهكذا أصبح على رأس جيش ضخم ويمتلك ثروات طائلة يواصل جمعها. ويقال إنه أصبح في آخر أيامه من القوة بحيث كان قادراً على استنفار جيش يعد مائة ألف رجل. إلا أننا نوصي بالحذر في قبول هذه الروايات لما يمكن أن تحوي من التضخيم الشائع في الشرق.

الهوامش

(١) يطلق المؤلف اسم اليمن على بعض أجزاء الجزيرة العربية، وعلى الأخص القسم الجنوبي من نجد ولعله يقصد اليمامة. وقد وقع في هذا الخطأ الكثير من المؤلفين الأجانب القدماء فكانوا يعتبرون حدود اليمن عند الخليج العربي.

(٢) لعل المؤلف يلمح إلى حلقات الذكر التي كانت وما زالت تعقد بمناسبة أو بغير مناسبة في بعض البلدان الإسلامية وهي على الأرجح بدعة لا أصل لها.

(٣) لم يذكر قصة هذا الحلم سوى المؤرخين الأجانب، وكان جان ريمون أولهم، فالقصة إذاً منقولة عنه إجمالاً. ولما كنا لا نشك في صدق جان ريمون، فلا بد أن القصة كانت تروى في زمانه في مجالس بغداد، وهي رواية لا تقدم ولا تؤخر في الوقائع التاريخية.

(٤) وقع المؤلف في الخطأ الذي وقع فيه أغلب المعاصرين لأول أيام دعوة التوحيد، ولا بد أن الأتراك كانوا يشيعون في تلك الأيام أن الوهابية تعني التنكر للحديث ونفي صفة النبوة عن محمد بن عبدالله (ص).

(٥) ليس ما يثبت أن محمد بن عبد الوهاب كان يحاول التقرب من المتنفذين في المدن الكبيرة كالبصرة أو بغداد أو غيرهما، أو إقناعهم بالعمل معه في نشر الدعوة.

(٦) العتوب هم بنو عتبة سكان جزيرة البحرين. أو لعل ما يقصده المؤلف هو عتيبة وقد التبست عليه التسمية.

(٧) لم يتخذ المصلحون لأنفسهم اسم الوهابيين إنما أطلق عليهم هذا الاسم في البداية من قبل أعداء الإصلاح حتى عرفوا به في جميع بلاد الجزيرة العربية وقد احتفظنا لهم بهذه التسمية في كتابنا إذ لم نر من ضرر في استعمالها.

(٨) ظل محمد بن سعود ومن تبعه من بعده يلجأون إلى استعمال الخيل وإن قل عددها عن عدد الإبل لديهم. ويذكر ابن بشر في مجال التحدث عن سعود الكبير أنه كان يملك وحده ألفاً وأربعمائة فرس من الخيل العتاق «يغزو معه منها ستماية فرس يركبها رجال انتقاهم من شجعان البوادي وشجعان مماليكه وغيرهم».

الفصل الثاني

الوهابيون وعاداتهم

ظلت جماعة الوهابيين مجهولة خارج نطاق الصحراء العربية حتى بداية حكم عبد العزيز ويبدو أن مبادئهم أخذت شكلها النظامي في ذلك الوقت كذلك. لذلك كان علينا لدى الحديث عن هذه الحقبة من الزمن بيان تفاصيل الإصلاح وهي على بساطتها غاية في الأهمية.

خلف عبد العزيز والده واتخذ مثله لقب الإمام. ولم يعش الشيخ محمد طويلاً بعد وفاة الإمام سعود الذي مهد له سبيل نشر تعاليمه. وخلفه في منصبه[1] ولده الشيخ حسين واتخذ لقب المفتي، وهذان المنصبان الوحيدان عند الوهابيين في العائلتين.

واحتفظ الشيخ الجديد بما تركه له والده من تعاليم ولم يقبل بإدخال أي تعديل على المبادئ. وتتلخص هذه المبادئ بالإيمان

بوجود الله ووحدانيته. وإن كان الوهابيون يعتقدون بالرسالة فإن الرسالة بنظرهم لم تكن إلا لنشر هذه العقيدة. ففي اعتمادهم شهادة المسلمين أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، حذفوا منها الشطر الأخير[٢] واكتفوا بالقول أن لا إله إلا الله. لذلك اعتبروا موحدين خالصين كما اعتبرهم بعض الأجانب خطأة طبيعيين.

والاختلاف الرئيسي بين سائر المسلمين[٣] والوهابيين يتعلق برأيهم في طبيعة «محمد». فالمسلمون من غير الوهابيين يعتبرونه نبياً، أما الآخرون فيعتبرونه حكيماً. وقد يبدو الخلاف ضئيلاً لا يمكن أن يحول دون جمع الفريقين. ولكن كلما تقاربت الآراء في أمور الدين كلما أبعد البغض بين مختلف المذاهب. ومن هنا كان بغض الوهابيين لبقية المسلمين. وعدم التسامح معهم من أصل قوانينهم، وهم يطبقونها بشكل صارم. وقد تكون مجزرة الإمام الحسين أقصى ما وصل إليه التعصب الديني.

ومن الغريب أن يكون الوهابيون أكثر تساهلاً مع اليهود والمسيحيين. ويبدو أنهم لا يضايقونهم إذا وقعوا تحت حكمهم، ولا يحاولون ضمهم إلى دينهم. وإن كان إجراء طقوس هذه الديانات في العلن محظوراً عندهم، فإن المسيحيين واليهود لا يمنعون من الصلاة في منازلهم. والضريبة الوحيدة التي يخضعون لها تستوفى بمعدل خمسة قروش عن الشخص الواحد. وخلاف ذلك فإنهم لا يدفعون أية إتاوة، ولا تلحق بهم أية مضايقة خاصة، لذاك فهم أوفر حظاً في حكم الوهابيين مما هم عليه في حكم العثمانيين. إلا أنهم يخضعون لتمييز مشين، بالرغم من ضمان الأمن لأموالهم ولأشخاصهم، فعليهم أن يسيروا دائماً على أقدامهم وأن يبتعدوا باحترام عن

الأماكن التي يجتمع فيها الوهابيون وأن يقفوا حيثما صادفوهم فيعطوهم يمين الطريق مع كل ما يلزم من دلائل الاحترام. ولا يسمح لهم بمخاطبة الوهابيين إلاّ في أمور ضرورية، فإذا فعلوا، فبصوت منخفض، وبالاحترام الواجب على عبد لسيده.

ولما كان القرآن هو أساس عبادة الوهابيين، فقد احتفظوا بجميع الطقوس الدينية المعتمدة لدى المسلمين[٤]. فهم يحافظون على الختان، ولهم العدد نفسه من الصلوات ونفس فرائض الوضوء، ونفس الركعات في الصلاة. وليس لمساجدهم أية زينة داخلية، وقد هدموا المآذن ورفضوا قبول أي مكان مرتفع فيها. وفي كل مسجد إمام لتلاوة وإقامة الصلاة. وهم يصومون رمضان ويبتعدون عن النبيذ والمشروب وأي مسكر آخر، وحتى أنهم منعوا استعمال الدخان وجعلوا الموت قصاص من يدخن.[٥]

وأدت رفعة درجة الحاج لدى الأتراك إلى الكثير من الاستغلال، مما جعل بعض الأجانب يعتقدون أن الحجاج يصبحون فوق القانون لدى عودتهم من الحج، فلا يمكن ملاحقتهم قانونياً. وهذا الاعتقاد الذي لا أساس له قد ولد من دلائل الاعتبار التي رأوها تبذل للحجاج ومن التعجرف الذي كثيراً ما لازم هذا اللقب.

إن إعطاء الطقوس الدينية لدى بعض الشعوب أهمية كبيرة، يؤدي بالنهاية، إلى أن تأخذ هذه الطقوس، مركز الفضائل الحقيقية التي يجب وحدها أن تجلب الاعتبار. وإن هذه الفضائل بالواقع نادرة بين المسلمين الذين يزورون قبر النبي. ومن هنا ولد المثل العربي القائل «احذر جارك إذا زار مكة، فإن زارها مرتين ففتش عن مسكن آخر»[٦]. وقد تعرض إصلاح الوهابيين إلى هذا الاستغلال، وإن ظل

الحاج مكرماً بينهم، فقد اعتبروا مع ذلك أن لا قيمة للحج إلى مكة إلا أمام الله. وهم لا يقبلون أن يمتاز الحاج بينهم بأي لقب خاص كما هو الحال لدى الأتراك.

وبصورة عامة فإن مذهب الوهابيين هو الإسلام بعد أن أزيلت عنه جميع الخرافات التي ألصقت به بين المسلمين. وهو ليس ديناً جديداً بل دين محمد نفسه في بساطته الأولى. لذلك كانت له جميع صفات الإصلاحات الدينية. وقد أبعدت عنه التقاليد وأصبح فيه جمال الخلق الهدف الأول، بدلاً من العقيدة. ومن هنا التشابه بين الوهابيين وبين البروتستانت، فالوهابيون أضافوا التشبث بالأخلاق إلى الاهتمام بالعقيدة، وعقيدتهم التوحيد الخالص.

وهدف المصلح الجديد في إصراره على إزالة الشوائب الحقيقية جدير بالتقدير. ولكنه زاد في التحيز لدرجة يصعب فهمها. وهكذا فإن الطقوس المقبولة لدى العموم، أصبحت محظورة لدى الوهابيين. فعموم المسلمين مثلاً، يحترمون الأموات احتراماً فائقاً، فيقيمون المساجد الجميلة والقباب الفنية فوق قبور الباشوات والأولياء والأنبياء. وهذه الأضرحة عديدة في البلاد العثمانية لدرجة أنها تشاهد بعيداً عن الأماكن المأهولة، وغالباً ما يلوح في الأماكن المقفرة وحتى في أواسط الصحراء بعض القباب، فتلفت نظر المسافر. وحتى قبور العامة من الناس تشغل بعناية، ففوق الحجر الذي يغطيها ينصب عمودان مغطيان بالكتابة ومنحوتان في طرفهما الأعلى على شكل عمامة للدلالة على وضع الميت أو مهنته. ويكون أحد هذين العمودين لحمد الله والثاني لذكرى محمد. وهذه القبور التي تكون خارج أسوار المدينة، تشكل حول جميع بلاد الشرق مدناً ثانية أكثر اتساعاً من مدن الأحياء.

وجعل الشرقيون من مدن الأموات هذه، أماكن نزهاتهم المختارة. ففي أيام معينة تغطى بالزهور وبالهدايا التي تأتي بها النساء. وليس أغرب من المنظر الذي يشاهد في أيام الأعياد هذه حيث تبدو النساء في ثيابهن البيضاء، كالأشباح الحائرة في مقر الأموات.

ولعل هذا التقديس الزائد للقبور كان السبب في إصرار الوهابيين على هدمها. ففي جميع الأمكنة التي احتلوها هدموا أضرحة المشايخ والأولياء. وهم يدفنون أمواتهم من دون أن يشار إلى قبور بأية إشارة خارجية، ويستندون إلى هذه الفقرة من القرآن: «خير قبر الأرض»[٧]. ويقولون أن الرجال الصالحين، وقد أصبحوا في دنيا أصلح من دنيانا، ينبذون كل المباهج الدنيوية.

ليس للوهابيين سوى كتاب واحد للقوانين وهو مرجعهم الوحيد في التشريع، وكذلك الحال لدى الأتراك. أما في الحالات الدقيقة فإن المفتي يستشير ثم يعطي رأياً خطياً يدعمه بإحدى فقرات هذا الكتاب. وهذا الرأي الذي يسمونه فتوى، يلزم القاضي المدني. وغالباً ما تكون الفتوى اعتباطية. وقد وصلت الفتاوى لدى الأتراك في المدة الأخيرة إلى درجة غريبة من الانحطاط، ويقال إنه أصبح بالإمكان حصول أي من الطرفين المتخاصمين على فتويين متناقضتين لقاء دفع أقل من قرش واحد.

وكان حب الاستغلال سبب خلق هذا التناقض الغريب. واستخلاص معانٍ غير موجودة أصلاً أمر سهل، إذ إن التأويل يكون عادة لمعانٍ مستترة يمكن أن تبلغ أكثر من معنى. وهنا يكمن سبب فقر التشريع التركي الذي يحاول الاستناد إلى تفسير القرآن بتأويله كل حسب هواه. والأتراك يحملون هذا الكتاب حيثما توجهوا،

فهم يعتقدون بأنه يتضمن بصورة لا تقبل الشك جميع المعلومات والفنون بكل تفاصيلها. وقد استقرت هذه الفكرة لديهم لدرجة أن أحد الأوروبيين سأل شيخاً في مصر، إذا كان هذا الكتاب يعلّم كذلك فن صب المدافع؟ فأجابه: يحوي ذلك بالتفصيل، ثم انسحب مستنكراً شك هذا «الكافر» بالأمر.

وهذا التقليد يجعل الأتراك في جهل دائم، فإذا بالوهابيين الذين هم اليوم على جهل أتراك الأمس، يفسحون المجال أمام تنويرهم بترك هذا التقليد، وها هم يفخرون بأن العرب أجدادهم حفظوا العلوم التي كان الغرب نبذها لمدة طويلة. وهذا المثل يشير إلى ما يمكن أن يصبح عليه الوهابيون في المستقبل إذا هم حافظوا على الاعتماد على ما كانوا عليه في الماضي.

إن المساواة، وإن كانت سراباً لدى الأمم المتحضرة، فهي على النقيض من تراث الشعوب الرعاة. هي المتاع الوحيد الذي يتمتعون به، ويدفعون ثمناً له كل ما تعطيه الفنون والرفاهية من متعة. والبدوي حريص على الاحتفاظ بحقه هذا. والوهابيون الذين أفقدهم شكل الحكم لديهم ميزات الحرية الأساسية، قد احتفظوا على الأقل فيما بينهم، بالتمتع بالمساواة، بموجب مبادئ ديانتهم. فهم لا يعرفون أي تمييز، حيث ألقاب من مثل وزير وأمير وباشا وغيرها منفية من لغتهم. فهم يتعاطون كأخوة، وهذا الاسم ينادي به السيد عبده، ويجيب به العبد سيده.

أخلاقهم بسيطة للغاية وتصرفاتهم خشنة. وهذه الخشونة تميز العرب أجدادهم، والجدية التي ترافقها هي جدية الديانة التي يتبعون. وهذه الخشونة تبدو في أحاديثهم وفي لباسهم وتمتد حتى طعامهم، فهم

يبدون عفة متناهية في كافة الأوقات. وفي حال قيامهم بغارة ما فإن هذه الصفة تصل لدرجة من الصعب تصديقها في أوروبا. فهم لا يحمّلون الناقة التي يمتطيها رجلان سوى قربتين تحوي إحداهما الماء، بينما تحوي الثانية طحين الشعير. فإذا جاعوا مزجوا الطحين بالماء. وهذا الغذاء يكفيهم لعدة أسابيع. وزيادة في التقشف متى فقد الماء، يشربون من بول الناقة، وحتى في حال فقدان هذا فإنهم يفتحون شرياناً في جبهة هذا الحيوان ويشربون من دمه[8]. وهكذا فإن رفيق أشغالهم، يكسوهم من صوفه، ويغذيهم من حليبه ويقدم لهم دمه بالنهاية كشراب، إذا استهلكوا بوله.

ونظراً لهذا التقشف والتعود على المتاعب، سيصبح الوهابيون في مناعة تامة إذ هم تحلوا بقليل من النظام. ولكنهم يفتقرون إليه تماماً، كما يفتقرون كلياً إلى الفنون الحربية. وعلى كل فأسلحتهم رديئة جداً، فهم لا يعرفون سوى بندقية الفتيلة، وهي نادرة في أيديهم، ويفضلون اللجوء إلى السيف والرمح، أو إلى القنطارية، وهي عبارة عن رمح مكون من عصا محددة الطرف ومكسوة بالحديد، يرمونها على الأعداء كما يرمي المماليك الجريد. والترس يشكل سلاحهم الدفاعي الوحيد. وهو عبارة عن درع دائري الشكل من أغصان الصفصاف مغطى بصاج من الفولاذ ومزود في باطنه بحلقة من النحاس يمسكونها باليد اليسرى.

وهذه الأسلحة غير المخيفة بحد ذاتها تصبح أقل رهبة وهي في أيديهم. فهم لا يحافظون على أي نظام في القتال ولا يباشرونه إلا إذا وجدوا أن العدو مستضعف لدرجة لا تترك لديه إرادة المقاومة. وهكذا فإنهم يفضلون الغزو على الحرب، وأقل مقاومة تحبط عزائمهم فيبتعدون سريعاً عن أعدائهم، ثم يعودون فيلحقون بهم مع

البقاء خارج متناول أسلحتهم. ويتابعون اللحاق من دون كلل، يهربون عندما يتوجه العدو نحوهم، ثم يعودون لاقتفاء أثره حالما استدار لمتابعة طريقه. وهكذا يترقبون أياماً طوالاً فرصة الانقضاض عليه وقتله من دون إيقاع أنفسهم في خطر، وهم مقتنعون بأن أفضل الانتصارات، انتصار يخربون فيه كل شيء من دون أن تلحق بهم خسارة.

وهذا النوع من القتال يتفق مع طبيعة الصحراء الواسعة التي يقطنها الوهابيون اليوم، وقد استعمل منذ القِدم. فهو الذي أدى إلى موت كراسوس وانكسار جيشه. فالجوع والعطش والتعب هي نوعاً ما حلفاء الوهابيين. فهؤلاء اعتادوا على تحمل هذه الأوضاع التي تحارب في الصحراء بجانبهم وتنصرهم على العدو الذي يخاطر بدخولها.

وهذه الطريقة في القتال كانت طريقة البدو على مر الأزمان. وليس الوهابيون اليوم سوى هؤلاء البدو أنفسهم، وقد جمعوا قواهم تحت لواء رئيس واحد، بدلاً من تجزئتها بين ألف قبيلة مستقلة. وهذا التجمع أوجد شعباً واحداً من جماعات تائهة أضعفتها النزاعات الداخلية، كما جعل هذا الشعب غير قابل للهزيمة في صحاريه، وسيصبح قريباً ذا سطوة خارج هذه الصحارى.

الهوامش

(١) هنالك من يقول أن عبدالله ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب كان خليفة أبيه. ولكن كلام المؤلف يؤيده ما جاء في عدة أماكن من تاريخ ابن بشر أهمها قوله: «فأما حسين فهو الخليفة بعد أبيه والقاضي في بلد الدرعية» (صفحة ٨٥ من طبعة وزارة المعارف السعودية)، ثم قوله: «وأما عبدالله بن الشيخ فهو الخليفة بعد أخيه حسين والقاضي في بلد الدرعية زمن سعود» (ص ٨٦٠). كذلك يقول صاحب «لمع الشهاب» وغيرهما.

(٢) لعل هذا الادعاء من تأثير الأخبار الكاذبة التي كانت تنقل في أرجاء السلطنة العثمانية. والحقيقة أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب لم يدخل أي تعديل على الشهادتين، ولم ينف صفة النبوة عن محمد بن عبدالله (ص).

(٣) يقصد المؤلف بكلمة «مسلمين» غير أهل التوحيد منهم، ويسميهم أحياناً العثمانيين، وقد احتفظنا بهذه التسميات. ويفهم من قراءة الكتاب أن هذه التسميات كانت سارية في زمن المؤلف خارج الجزيرة العربية.

(٤) يبدو أن المؤلف كان يترقب مصادفة تعديلات جوهرية أدخلت على الدين فإذا به لا يجد أي تعديل خلاف تخليص الدين من الشوائب والبدع. وهذا ما اضطر كذلك عثمان بن سند البصري إلى الاعتراف به في تاريخه، بالرغم من أنه كان يحاول تهديم الوهابية. ولم يطاوعه تمسكه بالصدق إلا على ذكر الحقيقة الخالصة.

(٥) لم يكن الوهابيون يتشددون في استعمال الدخان للدرجة التي يزعمها المؤلف. والواقع أن النهي عن استعمال الدخان عام بين المسلمين يتشدد فيه البعض، ويتساهل البعض الآخر. ولا بد في هذه المناسبة من التذكير بما أثبتته البحوث الطبية الحديثة من أضرار التبغ الوخيمة.

(٦) لم نسمع بهذا المثل إطلاقاً ولعله من دسائس أعداء الدين الإسلامي.

(٧) هكذا بالأصل الفرنسي، وهو بالطبع يقصد الحديث الشريف «خير القبور الدواسر».

(٨) لعل هذا افتراء من الأتراك يبررون به جلد العرب ومقاومتهم للمشاق، وتخاذل جنود الأتراك أمامهم وانهزامهم معللين انكسارهم بنفاد مائهم في أغلب الأحيان.

الفصل الثالث

الحملة الأولى ضد الوهابيين

الاستيلاء على الإمام الحسين[١]

وأخيراً هزت قوة عبد العزيز الباب العالي، فقام من سباته. ولا بد من استغراب قلة اهتمام الباب لانتصارات عبد العزيز الأولى. ولكن هذه السلطنة الكبيرة التي لا تحمل من السلطنة العثمانية سوى الاسم فقط، أصبحت اليوم مكونة من ولايات جميعها خارجة على حكم السلطان. ولما كان ضعفها يمنعها من هزم المتمردين، فإنها تحاول إضعافهم بتوجيه بعضهم ضد البعض الآخر. وهكذا أصبحت تتساهل، وفي بعض الأحيان تشجع المتمرد الضعيف لتوجيهه ضد متمرد أشد بأساً. وهكذا فإن السيد الكبير يحافظ على بقية من السلطة المستمدة من الشقاق، الناتج من هزال هذه السلطة.

وفي عام ١٧٩٧ بدأ الباب العالي يفكر جدياً بالحد من تقدم الوهابيين، ففي تلك الفترة استلم سليمان باشا، حاكم بغداد أمراً

بالسير لمواجهتهم. فجمع جيشاً عديداً وأسند قيادته لكيخيا[٢] علي، وهو اليوم الباشا. وقد طلب علي كيخيا إلى عشيرة العبيد مرافقته لأنهم كانوا أعداء عبد العزيز وقد رفضوا الخضوع لقانونه. وصار رئيسهم محمد بك شاوي دليلاً لعلي الذي سار لقتال عبد العزيز في الأحساء التي تتوسط بلاد هذا الأخير.

تفصل الدرعية[٣]، عاصمة الوهابيين، عن بغداد، صحراء لا يمكن قطعها بأقل من مسيرة اثني عشر يوماً. والحرارة القصوى، كما فقدان الماء، يجعلان هذه الرحلة صعبة وخطرة. لذلك لم يقطعها علي كيخيا إلا بعد أن فقد العدد الكبير من الرجال، ومع ذلك فقد وصل الأحساء مع قوة عظيمة. وسواء كانت مفاجأة للوهابيين أو أنهم خافوا من مواجهة الهجوم، بعد أن اعتادوا أن يكون الهجوم من طرفهم، فقد تفرقوا لدى اقتراب علي كيخيا. واضطر عبد العزيز نفسه إلى الانسحاب. وكان على وشك الوقوع بين أيدي عدوه، عندما توصل إلى رشوة محمد بك شاوي[٤]، فتخلى هذا عن حلفه مع باشا بغداد وأصبح وسيطاً في النزاع. وأفلحت الأساليب التي نفعت في انحيازه لجانب عبد العزيز، في كسب ود علي كيخيا فعقد صلحاً مع الوهابيين[٥]، وكان باستطاعته قهرهم، وعاد إلى بغداد محملاً بكنوزه.

وقد يبدو أن هذه الحملة التي كادت أن تكون قاضية بالنسبة لعبد العزيز ستؤدي إلى إبعاده عن أرض السلطنة العثمانية في المستقبل. لكن حدث عكس ذلك بالواقع، فإنه ما كاد يلمّ شمله حتى قام بالاستيلاء على مقام الإمام الحسين. وإليكم أصل هذا المقام الذي أصبح ذا شهرة في أوروبا بعد تلك الحملة.

أراد الإمام الحسين بن علي وحفيد النبي محمد الاستيلاء على الكوفة، فقتل بالقرب من تلك المدينة، في سهل كربلاء حيث تم دفنه. وأقام له أشياع علي مقاماً في ذلك المكان. وبنوا مدينة أعطيت اسمه. وهذه المدينة التي هدمها الخليفة المتوكل في عام ٨٥١ هـ[٦]، أعيد بناؤها من قبل ملوك إيران، عندما دخلت العقيدة الشيعية دولتهم. وقام الشاه إسماعيل مؤسس سلالة الصفوي بإنشاء مسجد كبير عند مقام الإمام الحسين زاد في تزيينه الشاه عباس ونادر شاه. وأصبح هذا المسجد موضع تقديس لدى العرب، كما امتلأ بالهدايا الثمينة من بلاد فارس.

وبلدة الإمام الحسين التي تقع على بعد ستة أميال من الحلة، ليست كبيرة وتضم ما بين سبعة آلاف وثمانية آلاف ساكن، ويحكمها متسلم يعينه باشا بغداد سنوياً. وهنالك جنود بأمر الباشا وفرقة من الإيرانيين يشكلون حامية لحراسة كنوز المسجد. وهؤلاء الحراس وغالبهم من الشيعة كبقية السكان، يقدسون الإمام علياً تقديساً عظيماً. ففي كل عام يحتفلون بعيده، ويحجون إلى قبره الواقع على بعد خمسة أميال من البلدة.

وقد انتظر عبد العزيز حلول موعد العيد لمحاولة الاستيلاء على البلدة، وقام بتنفيذ خطته في ٢ نيسان ١٨٠١. وكان ذلك اليوم يوم الحج إلى مقام علي، فكانت البلدة شبه مقفرة. وفجأة ظهرت ستة آلاف ناقة يمتطيها اثنا عشر ألفاً من الوهابيين الذين قضوا بسهولة على المقاومة التي واجهتهم. وقد أثارتهم المقاومة فعمدوا إلى القتل بدون تمييز، حتى أنهم بقروا بطون النساء الحوامل لكي لا يبقوا على أي ذكر في البلدة[٧]. وقد قيل إن عدد الضحايا في ذلك اليوم بلغ الثلاثة آلاف. وكانت الأسلاب هامة لدرجة كبيرة،

وكان قبر الإمام مغطى بسجادة مطعمة بالمجوهرات وبعضها نادرة الحجم، فأصبح هذا الكنز وغيره من الكنوز الواردة من فارس غنيمة للوهابيين. وهدموا المسجد والمآذن، كما جردوا القبة من صفائح النحاس المذهب الذي اعتقدوه من الذهب الخالص. وحمّلت مائتا ناقة بالكنوز وسيقت إلى الدرعية. وأنهى عبد العزيز الحملة بتلك المغانم الضخمة من دون أن يخسر رجلاً واحداً من رجاله.

أدى نبأ نهب الإمام الحسين إلى حدوث خيبة عظيمة في بغداد امتدت سريعاً إلى بلاط شاه إيران، فعاتب فتح علي شاه سليمان باشا على رخاوة كيخياه، في حملة الدرعية، وهدد بأن يرسل بنفسه جيشاً ضد الوهابيين، إذا لم تتخذ الإجراءات السريعة للقضاء عليهم. وقدم سليمان باشا أجمل الوعود، فجمع جيشاً كبيراً في مقاطعته وظل مدة طويلة يهدد عبد العزيز بحملة جديدة. وزادت الأوامر الصادرة عن الباب العالي في نشاط استعداداته، ولكنها بقيت من دون نتيجة. والترتيب الوحيد الذي قام به يبين أن سليمان باشا لم يكن يعتقد بجدوى هذه التهديدات. فقد كانت هنالك كنوز كثيرة في مقام مشهد علي والد الإمام الحسين وقد نقلت هذه الكنوز إلى مشهد الإمام موسى على بعد نصف ميل فقط من بغداد لتكون في مأمن من غزو وهابي جديد.

الهوامش

(١) يطلق المؤلف اسم الإمام الحسين على مدينة كربلاء والإمام علي على مدينة النجف وقد احتفظنا بهاتين التسميتين كما هما عليه في الأصل الفرنسي.

(٢) في الأصل الفرنسي كايا وقد عربناها إلى كيخيا وهي محرفة من كتخدا ومعناها معاون الباشا. وتجدر الإشارة إلى أن الكتب العربية القديمة تسميه كيا وأحياناً كدخدا وكهية وكخوة. (راجع ابن خلكان مثلاً).

(٣) الدرعية مدينة مبنية من الأحجار، لها من العرض نصف ميل وطولها ثلاثة أضعاف عرضها وتتوسط ضاحيتين، الأولى طويق في الشمال وفيها حالياً مقر سعود، والثانية بجير في الجنوب وفيها مسكن شيخ الحركة الجديدة. وفي الدرعية ثمانية وعشرون مسجداً وثلاثون مدرسة، وليس فيها حمامات عامة ولا مقاهٍ. أسواقها مجموعة من الدكاكين النقالة من خيام القصب التي يمكن نقلها بسهولة من مكان إلى آخر. ويقدر عدد مساكنها بألفين وخمسمائة مسكن من الحجر أو الآجر.

ليست الدرعية مسورة، وتقوم عند قدم جبال مرتفعة تشكل سلسلة من الشمال إلى الجنوب تدعى طويق. ويجب اجتياز هذه الجبال من واد يقع إلى الجنوب منها للوصول إلى نجد الغربية. وتتفرع الجبال إلى فرعين شبه متوازين أحدهما إلى الشرق والآخر إلى الغرب تفصلهما مسافة خمسة أميال ونصف الميل ويمتد الفرعان إلى مسافة أربعة أميال من الدرعية.

تمر بالمدينة ساقية تجف أيام الصيف تدعى وادي حنيفة. أما في الشتاء فتمتلىء الساقية بالماء التي تجرفها السيول من الجبال القريبة. وتحيط بالدرعية بساتين من أشجار الفاكهة كالبلح والمشمش والدراق، ويزرع فيها كذلك البطيخ والقمح والشعير والذرة (حاشية المؤلف).

(٤) راجع هامش (١٣) من هوامش رسالة جان ريمون.

(٥) لا نعتقد بأن علي كيخيا، قد ارتشى، وهو العدو اللدود للوهابيين. ولكنه قبل بالسلم حيث لم تترك له خيانة محمد بك مجالاً آخر. وهذا ما يؤيده

الانسحاب السريع الذي قام به، ودفنه الذخيرة والعتاد. ولما أصبح باشا بغداد عاقب محمد بك على الخيانة بإعدامه.

وقبل علي كان المدعو أحمد يقوم بوظيفة كيخيا لدى سليمان باشا، وكانت له مزايا كثيرة ولكنه كثير الجشع. وكان يعتبر الوهابيين كجماعة زائلة وغير خطرة. وقد أثر عليه محمد بك، الذي كان يرأس دائرة الشؤون العربية لدى عظمته فكان يحافظ على الوهابيين بدلاً من العمل على تهديدهم. وهذا ما ترك لهؤلاء العرب مجالاً لتركيز أسس سلطتهم في بدايتها، حيث كان بالإمكان وقف تقدمها.

وقد رأينا كيف أن علي كيخيا لم يشارك سلفه في آرائه الخاطئة بهذا الخصوص. وتبع في حملته الطريق من الحلة إلى البصرة على شاطىء الفرات. وأقام ثلاثة أشهر في تلك المدينة وغادرها في أوائل شهر كانون الثاني ١٧٩٨. وبعد مسيرة عشرة أيام صعبة في الصحراء، وقد زاد نقل المدفعية في طول مدتها وفي صعوبتها، وجد علي كيخيا نفسه مع جيشه على بعد ثلاثة أيام من الأحساء. وقد أرسل سرية للاستكشاف ولكن الوهابيين باغتوها وقطعوها إرباً. وعوض عن هذه الهزيمة سرية من الفرسان الأكراد الذين دخلوا الاحساء واستولوا عليها، وانسحب الوهابيون إلى داخل الحصن، وطلبوا هدنة شهر ونالوها. وقام علي كيخيا يحاصرهم بشدة بعد انقضاء المدة المذكورة. وعندها وجدوا وسيلة لربح محمد بك إلى جانبهم. وبدأ هذا الأخير باللجوء إلى حجج مختلفة لإبطاء عمليات علي كيخيا. فكان التطويل سبباً في انهيار عزيمة الجيش، ورأى علي نفسه مضطراً لرفع الحصار. وانسحب في الليل على عجل. وكان قد قطع نصف المسافة بين الأحساء والبصرة، عندما تقابل مع فرقة قوية من المردوفة كانت تنوي الدفاع عن بئر أراد العثمانيون النزول بقربهما. وكان هؤلاء مصممين على الاستيلاء على البئر مهما كلفهم الأمر، واستعدوا للقتال بضراوة وقد وقعوا بين اختيار الموت عطشاً أو الموت وهم يقاتلون. وفي هذا الوقت كان الوهابيون قد تبينوا مدى قوتهم وقوة عدوهم واستعداده للقتال، فندموا على التحرش بهم. وكانوا

يأملون عدم مصادفة أية مقاومة، فترددوا أمام المقاومة المرتقبة وأرسلوا إلى الكيخيا عروضاً للصلح. ورفض الكيخيا تلك العروض في بادئ الأمر، ولكن محمد بك توصل بالنهاية إلى إقناعه بقبولها. وتعهد الوهابيون بأن يدفعوا له نفقات الحملة، وأعطوه أدلاء للسير معه حتى البصرة على الطرق التي تحمل أفضل الآبار والينابيع.

واستقر السلام بين الوهابيين وباشا بغداد بعد عودة علي كيخيا. واستمر هؤلاء بالظهور في بعض نواحي باشورية بغداد كعادتهم، بقصد التجارة. وتشابك فريق منهم بعد المائتين مع فريق من الخزاعل كان يزور ضريح الإمام علي في أوائل عام ١٨٠٠، وقتل أربعون وهابياً في تلك المعركة. فطلب عبد العزيز من باشا بغداد تسليمه القتلة فأجيب بالرفض. لذلك قرر الانتقام بغزو الإمام حسين (حاشية المؤلف).

(٦) أخطأ المؤلف في ذكر التاريخ، فالواقع أن المتوكل قام بهدم القباب عام ٢٣٦ هجري، ولعل هذا التاريخ يوافق ٨٥١ ميلادي.

(٧) لا شك في أن الرواية غير صادقة، ولعلها كانت تروى مع مثيلاتها التي تختلق في مثل تلك المناسبات. والواقع أن الأوامر كانت تصدر عن عبد العزيز وعن سعود وغيرهما، برفع السيف عمن لم يبلغ الحلم وعن كل امرأة وشيخ مسن.

الفصل الرابع

دخول مكة

كانت قوة عبد العزيز تزداد يوماً بعد يوم. وزاد في صيت غناه ما استولى عليه من كنوز من الإمام الحسين. وأخمدت الفظائع التي ارتكبها هناك كل رغبة في المقاومة لدى أعدائه، فكان هؤلاء يخشون إثارة حقده بمقاومة كانت انتصاراته تبرهن أنها ستكون بلا جدوى. وبدا وكأن الكل سيخضع له، مما زاد الرهبة حتى أقصاها في كافة أنحاء الشرق. وفي ذلك الحين تواردت الأنباء عن استيلاء عبد العزيز على مكة، تلك المدينة التي يلقبها الأتراك بالمدينة المقدسة الأولى، والتي يتجهون نحوها في صلواتهم. وهي أكثر المدن تقديساً في الإمبراطورية العثمانية وحكمها يعطي السيد الكبير أهم ألقابه. فهي أساس قوته، وركيزة سلطته ولا يمكن أن يستمر بدونها. وعلى كل فإن هذا هو الاعتقاد السائد بين العثمانيين ويستند إلى الصلوات العلنية التي تقام كل يوم جمعة في مكة وفي جميع المساجد. ففي تلك الصلوات يعطى السيد الكبير لقباً وحيداً هو

خادم الحرمين الشريفين مكة والقدس فإذا فقد أول هذين اللقبين، تزعزع وضعه من دون شك.

وهكذا فإن دخول مكة كان خطة مدروسة من عبد العزيز. والاعتقاد بالقدر، هذا الاعتقاد المستحكم لدى المسلمين، كان يمكن أن يؤدي إلى تفسير الأمر بأنه نتيجة مباشرة لإرادة الله. وهكذا فإن استيلاء المصلح على مكة واحتفاظه بها، سيعتبر بنظر الأتراك تحقيقاً لإرادة الله. لذلك استولى عبد العزيز عليها من دون إبطاء. واغتنم فرصة الخلاف الواقع بين الشريف غالب وأخيه عبد المعين، وكانت إدارة مكة من حق هذا الأخير فجرده منها أخوه الأصغر غالب، فطلب حماية عبد العزيز الذي كتب إلى غالب بأن يستغني عما اغتصبه. فلما رفض غالب الانصياع أرسل له عبد العزيز مائة ألف وهابي بقيادة ابنه سعود[١].

وفي طريقه إلى مكة كان أول انتصار لسعود في الطائف. وتقع هذه المدينة الصغيرة على بعد اثنتي عشرة ساعة من مكة وسط سهل خصب تكثر فيه المياه العذبة. ففيه تزرع الفواكه والخضار حيث للعنب طعم شهي وحيث البطيخ يبلغ بكبره من الحجم ما يجعل البطيخة الواحدة تكفي غذاء لعشرة رجال.

أما مكة فإنها تقع على أرض قاحلة، لذلك فهي تستهلك القسم الأكبر من تلك الفواكه وهي المصدر الوحيد لتجارة القوافل بين المدينتين. وقد عمت خيبة الأمل أرجاء مكة لدى الاستيلاء على الطائف، وزادت هذه الخيبة عندما بلغهم أن الوهابيين قد قتلوا ألفاً وخمسمائة رجل من المسلمين واليهود. وخاف الشريف غالب عجزه عن المقاومة في مدينة مفتوحة فتقدم لمواجهة سعود وطرده من

الطائف. ولكن القوى لم تكن متعادلة فهزم وتراجع إلى مكة مع من تبقى من جيشه بعد أن خسر ما خسر.

وفي تلك الأثناء كان عبد الله باشا والي دمشق، ورئيس قافلة الحج إلى مكة يتجه مع القافلة نحو مكة. ولدى وصوله إلى مزيريب، وهي قرية صغيرة في الصحراء على مسيرة يومين من دمشق، بلغه خبر استيلاء الوهابيين على الطائف وتوجههم نحو مكة. فأرسل فوراً تاتار[٢] إلى الآستانة وتابع سيره وهو يجهل ما ينتظره من معاملة. ولم يصادف أي عائق في البداية إلى أن أصبح على بعد أربعة أيام من مكة حيث تصدت له جماعة من الوهابيين تبلغ الأربعمائة رجل. وتذرع هؤلاء بما كان يدفع عادة للبدو فطلبوا ما يعادل أربعة أضعاف تلك الرسوم. فرفض عبدالله باشا الدفع. ولما حاولوا إجباره على ذلك، تحدى الوهابيين وقتل مائة وخمسين رجلاً منهم.

ولم يكن بدٌّ من معرفة استعداد عبد العزيز بعد هذا اللقاء الأول، لذلك كتب عبدالله باشا شاكياً ما لاقاه من معاملة، مبيناً أن الوهابيين قد جانبوا العدل حين طلبوا رسوماً تزيد عن الرسوم الاعتيادية، التي كان على استعداد لدفعها بطيبة خاطر. فإن اختار القتال فلأن الوهابيين دفعوه إليه قسراً، وكان عليه أن يحمي نفسه بالقوة. وأضاف أنه لما كان يخشى أن تكون هذه الاشتباكات الأولى مقدمة لمعارك بينه وبين سعود، فإنه يرغب في الاطلاع على موقف هذا الأخير قبل مواصلة سيره. وأخيراً طلب منه أن يعلمه إن كانوا أصدقاء أم أعداء وإذا كان بإمكانه التوجه إلى مكة من دون وجل.

لم تكن خطط سعود في ذلك الحين تتضمن مقاومة السيد الكبير. لذلك استقبل رسالة عبدالله باشا استقبالاً حسناً، فوافق معه أن المعركة كانت غير عادلة وأن من قتل من المعتدين قد أخذ حقه أما الباقون فسينالون جزاءهم. وأضاف أنه لم يأت لمقاتلة عبد الله باشا بل الشريف غالب، لذلك فلا مانع لديه من دخوله مكة مع رفاقه، وهو يعطيه فرصة ثلاثة أيام للبقاء في مكة من دون خوف ولا وجل. أما بعد انقضاء الأيام الثلاثة فإنه سيدخل مكة ويعيد عبد المعين إلى منصبه.

واغتنم عبدالله باشا استعداد سعود الطيب ليرسل له أدهم أفندي، وهو شيخ كان في ما سبق قاضي مدينة القدس وقد أتى من الآستانة قاصداً مكة مع عبدالله باشا، بعد أن أوكل إليه الديوان مهمة مقابلة إمام الوهابيين وإبلاغه استعدادات الباب العالي الطيبة. وكانت هذه هي الوسيلة الوحيدة التي فكر السيد الكبير، لضعفه، باللجوء إليها لإخماد الحقد الذي تكنه هذه الجماعة نحو الأتراك. وكانت الرغبة في التغطية قد عوّدته هذا الأسلوب، وهو الوضع الطبيعي بالنسبة للمستبدين وللشرقيين، كما هو أسهل وأنفع في نظره، من حرب علنية لم يكن باستطاعته خوض غمارها. وكان يعلم أن انتصار باشا بغداد على الوهابيين سيجعله عدواً لا يقل خطراً عن هؤلاء على الباب العالي. بينما يستطيع أدهم أفندي في حال استقبال عبد العزيز له، أن يفرق بين مختلف رؤساء القبائل بما لديه من حيلة وإقناع، من دون نفقات كبيرة ومن دون خطر على الباب العالي. وقد تؤدي هذه الانقسامات إلى معارك بين الوهابيين أنفسهم، وتعيد الفرقة بين القبائل العربية، وتعيدها، بالتالي، إلى حالة الذل والضعف التي كانت فيها حتى ذلك الحين.

وكان أدهم أفندي قد اجتمع في الآستانة اجتماعات طويلة مع المفتي ورجال القانون فتداولوا كثيراً في الأساليب التي يمكن اعتمادها للتقريب بين تعاليمهم وتعاليم الشيخ محمد. واعتقدوا أن تراجعهم في بعض النقاط سيجعل هذا التقارب غير مستحيل. فكلفوا الوسيط بالتداول مع الشيخ حسين، وهو في ذلك الحين شيخ الوهابيين. وفي الآستانة قبل أدهم أفندي المهمة برغبة. ولكنه تبين ما فيها من مشاق حال اتصاله بالوهابيين واطلاعه على ما هم عليه من تمسك بآرائهم، وأدرك الخطر من محاولة عرض تسوية على مصلحين مجددين لا استعداد لديهم لقبول أية تسوية. فالاتصالات التي كان كلف بإجرائها تقتضي بطبيعة الحال النقاش، والنقاش في نظر الوهابيين جريمة جزاؤها الموت[٣]. لذلك رغب أدهم أفندي، متأخراً، في الرجوع عن ارتباطاته والاستغناء عن مهمته. ولم يقبل عبد الله باشا ذلك، حفاظاً منه على تنفيذ أوامر الباب العالي، لذلك أرسله تحت حراسة قوية إلى ابن سعود. ومنذ ذلك الحين لم تسمع أخبار ذلك الأفندي البائس الذي ذهب من دون شك ضحية سياسة الباب العالي وتعصّب المصلح الجديد.

وبينما كانت هذه المباحثات تجري بين سعود وباشا دمشق، توجه غالب بعد انكساره، بالقرب من مكة، لمقابلة هذا الأخير ليرجوه التوسط بينه وبين سعود وعرض الصلح عليه بالشروط التي يريد. واستقبل سعود هذا العرض استقبالاً جافاً وأجاب بشدة أنه لا يسمح لعبد الله باشا أن يتدخل في مشاكله مع غالب، وأنه قد تساهل كثيراً بالإذن له بدخول مكة، وأنه وإن كان لا يرجع عن إذنه هذا، إلا أنه يصر على شرط عدم استمرار الإقامة أكثر من ثلاثة أيام، وأنه بعد انقضاء هذه الفترة سيدخل مكة بنفسه، ولن يرضى حينذاك عن موت غالب بديلاً.

ولم يصر عبد الله باشا على طلبه، وغادر مكة ضمن الوقت المحدد. ونظراً لعدم استطاعة غالب حماية نفسه في مكة غادرها مع عبدالله باشا متوجهاً إلى المدينة وبرفقته شريف باشا من جدة. ثم توجه الجميع إلى جدة حيث وصلوا بعد بضعة أيام.

وبينما كانوا يحصنون أنفسهم في جدة، (وكان ذلك في أوائل شهر رمضان ١٢١٧[٤] أي ٢٥ كانون الأول ١٨٠٢) توجه سعود إلى مكة على رأس جيشه المظفر فدخلها بدون مقاومة وعامل سكانها معاملة طيبة، باستثناء منيب أفندي قاضي مكة الذي عزل ثم أعدم لعدم تقيده بالتعاليم الوهابية. ولحق به عشرون من المشايخ فذهبوا ضحية عقيدتهم. أما الباقون فكانوا أشد حذراً إذ انصاعوا للأمر أو تلافوا بيان رأيهم. وباشر سعود، متقيداً بتعاليم الوهابية، بهدم جميع أضرحة الأولياء داخل مكة وفي جوارها. وفي منتصف مدينة مكة ممر يبلغ طوله ربع ميل، يسمونه بالعربية «طواف»[٥]، اعتاد الحجاج الدوران حوله سبع مرات قبل مغادرة مكة. وقد أصبح هذا المكان منذ بضع سنوات مركز العمليات التجارية، فأقيمت حوله المتاجر لعرض البضائع التي تأتي بها القوافل. فأمر سعود بهدم هذه المتاجر مدعياً بأنها تدنس «الطواف». واعتنى سعود بإرشاد أهل مكة ولكن ذلك لم ينسه الكنوز المجمعة في الكعبة. وكان ضريح إبراهيم (النبي) مغطى بسجادة ثمينة من نسيج الحرير والذهب. فأمر سعود برفعها ووضع حصيراً من عسف النخيل مكانها. ولكنه لم يجرؤ على هدم الضريح لعلمه بالاحترام الذي يكنّه العرب لإبراهيم وهو أقدم شيخ خلدوا ذكره. إلا أنه هدم ضريح الحسن والقاسم اللذين كان الفرس يجلّونهما أعظم الإجلال وحيث كانوا وضعوا كنوزاً ثمينة.

وبعد أن اغتنى سعود بهذه الكنوز، فكر بالاحتفاظ بمكة. فأعاد عبد المعين إلى كرسي الشريف، ولدعمه في هذا المركز ترك بالقرب منه متسلماً ومعه أربعمائة جندي احتلوا الحصن. وبعد أن تأكد من إخلاص عبد المعين، ترك مكة وتوجه نحو جدة.

الهوامش

(١) يقول المؤلف إن منصب شريف مكة كان من حق عبد المعين وقد أزاحه أخوه غالب واحتل مكانه. ويذكر ابن بشر أن سعود عين عبد المعين مكان أخيه عندما انهزم هذا الأخير إلى جدة. ولكن غالباً أعيد إلى منصبه بعد مبايعته لسعود، مما يدل على أن المنصب كان من حقه شرعاً وليس من حق أخيه عبد المعين.

(٢) هم سعادة البريد التابعون للباب العالي. مهمتهم نقل فرمانات وأوامر الباب العالي، وكذلك الكتب التي يرسلها الباشوات وحكام الولايات. وتعطيهم هذه الوظيفة اعتباراً خاصاً، فهم يقيمون ويأكلون في أي منزل أو خانة حيث تقدم لهم الجياد لمتابعة سيرهم. فإذا كانت مطيتهم غير صالحة، حق لهم استبدالها بأي مطية يصادفونها وتكون الأفضل (حاشية المؤلف).

(٣) ليس صحيحاً أن الوهابيين كانوا يعتبرون النقاش جريمة كما يدعي المؤلف. وبرهاناً على عدم صحة ذلك، ما رواه ابن غنام وغيره من أن غالب بن مساعد شريف مكة أرسل إلى عبد العزيز يطلب علماء يناظرون علماء مكة في أصل الدين والتوحيد. وقد أجابه عبد العزيز إلى طلبه «لأنه كان يدعو إلى الله بالتي هي أحسن، ويرشد العباد «للتي هي أقوم» فأرسل إليه جماعة من العلماء كان كبيرهم حمد بن ناصر بن معمر. وجرت المناظرة في شهر رجب من عام ١٢١١ أي قبل القصة التي يرويها المؤلف ببضع سنين. ولعل أدهم أفندي قد قتل لمخالفته أوامر الباشا من دون أن تتاح له الفرصة للتوجه إلى مكة أصلاً.

(٤) الخطأ واضح في هذا التاريخ، لأن انسحاب غالب إلى جدة كان بعد أداء

فريضة الحج أي حوالي منتصف شهر ذي الحجة. ومن المعلوم أن دخول مكة قد تم في أوائل شهر محرم من عام ١٢١٨.

(٥) ليس المقصود هنا الطواف حول الكعبة، إنما المكان المسمى بطن الوادي الواقع بين صفا ومروة، والذي يجب الطواف به سبع مرات. وكان هذا المكان يشكل ساحة عامة، تحيط بها المخازن على جوانبها، من حلاقين وصيارفة وبائعي خشب الند والعنبر والطيوب والحنة والتبغ وغيرها (حاشية المؤلف).

الفصل الخامس

كرٌّ وفرّ

كان النصر حليف الوهابيين حتى ذلك التاريخ. والواقع أنهم لم يلاقوا أمامهم سوى المدن المفتوحة. وكان تفوّقهم بالعدد يعطيهم في القفار ميزة ظاهرة، حيث كان أعداؤهم يتجنبون كل مقاومة. أما في جدة فقد اختلف الأمر، لأنها كانت محاطة بأسوار قام غالب وشريف باشا بإصلاحها. ولم يكن موقف الوهابيين الصلب ليترك أمام جدة خياراً سوى الدفاع المستميت. لذلك أمكن وقف تقدم الوهابيين عند هذه المدينة. وكان سلاح الوهابيين يقتصر على رماح بسيطة وبنادق فتيلة يجهلون استعمالها. وكان يعوزهم النظام والمعرفة بفن الحصار، فكانوا يهاجمون بدون أي احتياط، عدواً محصناً في أبراجه يستطيع اختيار هدفه من دون عناء. لذلك كانت هجماتهم تصد بنجاح في كل مرة. ولم تكن خيبة الأمل من التراجع في كل مرة هي وحدها سبب انهيار عزيمتهم، فقد أضيف إلى خيبة الأمل هذه، حيف أشد وطأة، إذ انتشر الطاعون بين أفراد

الجيش فحصد منهم العديد. ولم يجد سعود أمامه إلا حلاً واحداً هو رفع الحصار والانسحاب إلى الدرعية.

وكان قد أرسل قسماً من جيشه إلى المدينة حين توجه إلى جدة، غير أن هؤلاء لم يكونوا بأحسن حظ منه. فقد تقدم ابن المضين وابن الحرب[1] نحو المدينة وحاصراها مع من معهما بعد الاستيلاء على قرين وسبران. وتوجه أهل المدينة لمقاومتهم، فأخرجوهم من هاتين القريتين وقتلوا العديد منهم. وهكذا وجد سعود نفسه يتراجع في آن واحد من جدة ومن المدينة. ورغب قبل الرجوع إلى الدرعية في محاولة أخيرة للاستيلاء على المدينة بالحيلة، بعد أن عجز عن الاستيلاء عليها بالقوة. فأرسل قافلة من الإبل، تحت قيادة ابن الصالح وابن الباز، وطلب هذان أن يؤذن لهما بدخول المدينة مع أتباعهما، لإبلاغ الرسالة المحملة لهما. فلما رفض هذا الطلب أرسلا رسالة من سعود محررة كما يلي:

«من سعود إلى سكان المدينة كباراً وصغاراً، سلام ـــ إني أبتغي أن تكونوا مسلمين حقيقيين، آمنوا بالله تسلموا والا فإني سأقاتلكم حتى الموت».

وكانت هذه التهديدات مضحكة بعدما فقد الوهابيون ما فقدوا عند أسوار جدة. وهذا، بالإضافة إلى انكسار ابن المضين، شجع سكان المدينة على الإجابة بأنهم لا ينتظرون رغبة سعود للإيمان بالله وعبادته.

وكان سعود يبتعد عن جدة عندما أبلغه ابن الصالح وابن الباز جواب أهل المدينة. وكان همه في ذلك الوقت منصرفاً إلى مكافحة الوباء الذي حل في ما تبقى من جيشه، لذلك لم يفكر في معاقبة

المدينة على ذلك التصرف، زد على ذلك أن بعض حلفائه انحازوا إلى جانب المدينة وهؤلاء هم بنو حرب وبنو جعيتي، وهما قبيلتان عربيتان أخضعتا بالقوة، فوجدتا الفرصة مناسبة للتخلص والانضمام إلى أعداء الوهابيين. واقتدت بهذا التصرف قبائل أخرى تحول بعضها إلى المدينة، وبعضها الآخر إلى جدة. فأصبح بإمكانهم مقاومة سعود في الموقعين بقوة تفوق تلك التي لم يستطع سعود التغلب عليها منفردة.

لذلك اتخذ سعود قراراً حكيماً بالانسحاب، وهو سعيد بالاحتفاظ في مكة بالمرابطة الذين تركهم هناك. وفي هذا الوقت أعلن بنو زبيد الحرب على الشريف عبد المعين، وقيل إن هذا الأخير اتفق معهم على إعادة غالب إلى منصبه.

ويبدو أن هذا الشريف الجديد قد تضايق من وجود هؤلاء الأغراب المتعصبين، فدعا أخاه سراً للعودة إلى مكة، لكي يسلمه الحامية التي تركها الوهابيون في الحصن. وخاف غالب من الوقوع بأيدي سعود فلم يأمن لوعود أخيه، ولم تؤد المؤامرة إلى أية نتيجة.

وهكذا انتهت الحملة التي نشرت الرعب حتى أبواب حلب وحدود سورية. وأعاد سعود بقايا جيشه إلى الدرعية بكثير من المشقة، بينما ارتفعت معنويات سكان جدة والمدينة لانسحابه وصاروا لا يهتمون بقوته. وعادت المواصلات التي انقطعت أثناء وجوده إلى حالتها الطبيعية، وفي مدة قصيرة عادت الأرزاق تظهر في المدينتين.

الهوامش

(١) لعله يقصد قبيلة بني حرب.

الفصل السادس

الوهابيون بعد موت عبد العزيز

أولى غزوات سعود

أمّن الاستيلاء على مكة لقب خادم الحرم الشريف لعبد العزيز. وهذا اللقب، وهو أسمى الألقاب بنظر العثمانيين، أزال كل الحواجز من أمامه. ورأى الناس في ما حدث برهاناً على مهمة عبد العزيز المقدسة لاعتقادهم الجازم بالقدر، فكان لهذا الظفر الهام بحد ذاته، أهمية أكبر بما جره من نتائج.

لذلك فإن الفرحة التي عمت الدرعية لدى دخول مكة،لم يؤثر بها رفع الحصار عن جدة وتراجع الوهابيين، غير أن حادثاً أليماً جعل الحزن يحل محل الفرح. إذ لم يكد سعود يعود إلى الدرعية، حتى وقع اغتيال عبد العزيز من قبل أحد خدمه. وكان هذا درويشاً كردياً، قُتل أبناؤه الثلاثة في مجزرة الإمام الحسين، فعقد العزم على الانتقام.. وتقدم لخدمة عبد العزيز ونال ثقته. واغتنم ذات يوم فرصة

مرافقته عبد العزيز للمسجد فطعنه بخنجر وهو يؤدي صلاته، وكان ذلك في ٢٧ رجب أي ١٢ تشرين الثاني ١٨٠٣. وتوفي عبد العزيز في الحال. وقبض على الجاني وحكم عليه بالحرق، ولكن النار لم تؤثر في هذا الشهيد، فاضطروا إلى قطع رأسه للتخلص منه[1].

وهكذا مات عبد العزيز في الوقت الذي دخل فيه مكة منتصراً فأصبح سيد الجزيرة العربية، وأصاب السلطنة العثمانية بأخطر الضربات. والوهابيون مدينون لهذا القائد بانتصاراتهم الأولى. فهو أول من زعزع بصورة علنية حكم السلطان في آسيا، بعد أن انهار في أوروبا، حيث ما زالت بعض المصالح السياسية تسنده. وكان يعطي الوهابيين مثالاً حياً للتقشف الذي بشر به عبد الوهاب، بما عرف عنه من العفة واحتمال المشاق منذ صغره. فكان الشعب الذي يتألم من الحرمان يجد هذا الحرمان أقل مرارة، وأحب حباً جماً ذلك الرجل الذي شاركه حرمانه فعلّمه كيف يصبر ويتحمل.

وكانت أهم عقبة تحول دون انتشار الوهابية ما كان شائعاً بين المشايخ العرب من أن أتباع عبد الوهاب يجبرون على الاستغناء عن أملاكهم. وقد وعد عبد العزيز بالمحافظة على مكانة وثروات كل من يدخل طوعاً في جماعته. وكان يتقيد بهذا الوعد بكل إخلاص مما قسم الوهابيين إلى فئتين مختلفتين من الناس، الأولى مكونة من المنتمين طوعاً، والثانية من المنضمين بالقوة. وهؤلاء جردوا من ممتلكاتهم فأصبحوا أمثولة حية، وكان ما حل بهم أحسن درس لكسب مؤيدين جدد طوعاً. فأصبحت العقبة في طريق تعاليم عبد الوهاب سابقاً أسلوباً لنشر هذه التعاليم.

ولزيادة نشاط جيشه، ألغى عبد العزيز العرف المتبع في استيلاء

الرئيس على جميع الغنائم المأخوذة من العدو، فلم يحتفظ إلاّ بخمسها وأمر بتوزيع الأربعة أخماس الباقية بين رجاله. وفي الوقت نفسه كان يعاقب مخالف الأوامر بأقصى العقوبات. ومن هنا الدقة في تنفيذ أوامره والسرعة في تنفيذها. ففي اليوم السابق لأية حملة كان يختار القبائل التي يرى اشتراكها بالحملة ويوجه إليها كتاباً محرراً كما يلي:

«من عبد العزيز إلى الشيخ من قبيلة
سلام
سيجتمع عدد كذا من الرجال في يوم كذا في موقع كذا».

وكانت هذه الأوامر تنفذ بالدقة نفسها التي أمليت بها. وهكذا عرف عبد العزيز كيف يدخل الطاعة والنظام في صفوف العرب بعد أن كانا مفقودين منذ أزمان.

والآراء الدينية التي كانت تلهم هذا الرجل العظيم كانت تجد في بساطتها طابع النبل والعظمة. وفي هذه الآراء الدينية سر إمكاناته. فبعد تلك الحروب الدينية العديدة التي سمعنا بها في الغرب والتي كانت أسبابها مضحكة أحياناً، ودائماً غير واضحة، استطاع أخيراً مبدأ وجود الله ووحدانيته أن يسلح في أقصى البلاد العربية رجالاً منسيين وجهلة، ليضعوا نصب أعينهم هدف إعادة هذا المبدأ الأزلي إلى البساطة التي هي روحه الحقيقية، بعد أن أصبح مشوهاً في كل مكان. وهدف عظيم كهذا لا بد أن يلهم الاندفاع في الأتباع الجدد، ويعطي لقائدهم الحكمة، وغيرها من الصفات التي تضمن له النجاح. ومن هنا ندرك الصفات التي امتاز بها عبد العزيز، من بسالة وذكاء أتاحا لحملاته أن تتسم بالسرعة وبالكتمان كما

وبالشدة والنظام اللذين ضمنا تنفيذ أوامره في كل مكان. وقد عرف بعدالته التي لا تتزعزع، فقد وجدناه يصغي لطلبات قبيلة تقاتله، في مواضيع سابقة للقتال. وقد كان مؤمناً مندفعاً صادقاً. فاستعمل الثروات التي استولى عليها من الأعداء كوسيلة لنشر تعاليم عبد الوهاب، ولم يجعل هذه التعاليم في أي وقت وسيلة لجمع الثروة لنفسه.

وذاع خبر مقتل عبد العزيز في أنحاء السلطنة العثمانية، وظل العثمانيون مدة طويلة يعتقدون بأن غيابه سيؤدي إلى انهيار جماعته، خصوصاً أن رفع حصار جدة جعل الناس يعتقدون بأن الوهابيين استغنوا عن مكة، وأن هذه المدينة ستعود إلى سلطة السيد الكبير الذي ظل يحمل لقب خادم مكة، وإن كان قد فقد حق الاحتفاظ به.

لجأ غالب إلى جدة فوجد أنه ما زال قريباً من متناول يد عدوه، فهرب منها بعيداً. نقلته سفينة إلى مصر ومنها إلى الآستانة حيث ذهب يطلب إلى الباب العالي المساعدة في قضيته التي كانت تهم الاثنين معاً. وقد ظل مدة طويلة يتلقى الوعود حتى أدرك قلة ما فيها من صدق. لذلك استغنى عن مراجعات عقيمة، وعاد إلى جدة يتحين الظروف التي قد تتيح له العودة إلى مكة.

وكان الوهابيون في ذلك الوقت، في أواسط صحرائهم، بعيدين عن حالة اليأس التي ظنهم أعداؤهم فيها. وقد رأينا أن حملاتهم العسكرية لم تكن سوى هجوم مفاجيء، ينجح إذ كان غير متوقع، وتكون غايتهم السلب أكثر من القتال. وهكذا كان غزو الإمام الحسين واحتلال الطائف ومكة. فتراجعهم عند جدة لم يكن سوى

نتيجة طبيعية لأساليبهم الحربية، لذلك فإنه لم يترك لديهم أي شعور بالعار أو الخيبة، والخسارة الوحيدة التي كان عليهم تعويضها، كانت فقدان العديد من رجالهم حصدهم وباء الطاعون.

وعلى هذا فإن وفاة عبد العزيز المؤلمة بحد ذاتها لم تؤد إلى أية نتيجة سيئة خلاف ذلك. فقد خلفه سعود واحتفظ مثله بلقب إمام الوهابيين، وأسند حكم الدرعية إلى عمه عبدالله. وقد ترك عبد العزيز عدة أولاد من زوجتين، وكان سعود أول أولاد الزوجة الثانية. وقد لوحظ في تصرفه منذ البداية، ميل ظاهر لأخوته من أبيه، وظل محافظاً على هذه السياسة ولم يحد عنها أبداً. وسواء كان ذلك لتأكده من إخلاص أشقائه، أو لأنه كان يخشى غيرة إخوته من أبيه، فقد كانت لهؤلاء المناصب والتشريفات، بينما أبعد الآخرون عن الإدارة[٢]، ومن هنا عدم الرضا الذي ظهر في العائلة والذي اتهم عبدالله بإثارته.

وأول عمل قام به سعود بعد توليه الأمر كان في الثأر لموت عبد العزيز. وقد وجه التهمة لعلي، باشا بغداد، بأنه كان وراء تلك الجريمة. لذلك تقدمت سرية من الوهابيين في أواخر عام ١٨٠٣ نحو بغداد وخربت ضواحي الإمام علي.

وكان في بغداد آنذاك وهابي يتمتع بالكثير من الاعتبار، وهو فارس الجربا شيخ قبيلة كبيرة تستوطن شمال الحلة بين دجلة والفرات[٣].

وكانت هذه القبيلة قد اعتنقت مبادئ محمد بن عبد الوهاب، فترك فارس الجربا عائلته في الدرعية وسافر إلى بغداد حيث استقبل أحسن استقبال، واتخذه علي باشا صديقاً له.

وقد رأى الحاكم أن يتجه إليه عندما أراد التقدم نحو العدو واستكشاف أحواله. وسبب هذا الاختيار الغريب كان، بدون شك، المعرفة التي استقاها فارس الجربا أثناء إقامته في الدرعية، عن أصول القتال لدى الوهابيين. وقد يكون السبب في هذا الاختيار أيضاً، أن علي باشا أراد أن يواجه هجوم الوهابيين بوهابي من عنده، لكي يثبت أن هؤلاء القوم وإن جمعتهم العقيدة فقد تفصلهم الحرب، بحيث تؤدي هذه السياسة اللبقة إلى تفكك اتحاد قبائلهم، وهو السبب الوحيد لقوتهم.

ومهما تكن أعذار حاكم بغداد، فقد برهن خلال مدة قصيرة أن ثقته بفارس الجربا كانت محدودة. فقد لحق به يرافقه الكيخيا، مع قوة هائلة، حالما تبين أنه اكتشف موقع العدو. ولم ير الوهابيون قدرة على مواجهة عديد قواته فانسحبوا من دون قتال، ولم تؤد الحملة لأية نتيجة هامة.

ولم يستغرب سعود هذا الفشل. وبغية المحافظة على خطط الفتوحات التي بدأها والده بنجاح، رأى أن الأوفق مباشرة التوسع في مناطق أقرب إليه من بغداد. فبعد أن وصل بفتوحاته غرباً حتى مكة وشواطىء البحر الأحمر، صرف اهتمامه للوسائل التي تجعله يسيطر على الشواطىء الشرقية التي يحفها خليج فارس. وللنجاح في هذه الخطة باشر ببناء مراكب صغيرة، عوضت عن ضعفها بكثرة عددها وغطت في فترة قصيرة مياه الخليج. وكانت هذه المراكب تستولي من دون تمييز على السفن التجارية التي كانت تعمل بين الهند وموانىء البصرة وأبي شهر وبندر عباس وشواطىء إيران. ولما كانوا لا يعرفون من حقوق الحرب سوى حق الأقوى، كانوا يعتبرون جميع المراكب عدوة لهم. وكانوا ينتظرون الليل

لمفاجأة تلك التي كانت تستطيع المقاومة، فكان ضيق الخليج يساعدهم على تلك المباغتات. وهكذا كانت غنائمهم تزيد يوماً بعد يوم إلى أن أصبح لديهم أسطول يكفي للسيطرة على مياه الخليج. ومنذ ذلك الحين خفت المواصلات التي كانت ناشطة في الماضي بين الهند والشرق، إلى أن انقطعت نهائياً.

وكان البريطانيون في الهند يتصلون بأوروبا عن طريق البصرة وحلب والآستانة. وكان الاحتفاظ بهذه الطريق الأكثر أماناً وسرعة من اللف حول رأس الرجاء الصالح ذا أهمية كبيرة لديهم. لذلك صدرت الأوامر لسفينتين حربيتين بالاقتصاص من مصدر الإهانات خصوصاً بعد أن تم الاستيلاء على العديد من سفنهم أمام البصرة. فدمرت السفينتان حصناً قد بناه الوهابيون على الشاطىء. وكان هذا كل ما استطاعتا القيام به، وكأنما كان قصدها التهديد لا الانتقام.

وتبين أنه من المستحيل، حتى على بضع سفن، أن تلحق أي ضرر حقيقي بالوهابيين. فالواقع أن هؤلاء يستطيعون، عند أول بادرة، الانسحاب بعيداً عن الشاطىء فتؤمن لهم الصحراء ملجأ، من الصعب كما أنه من الخطر محاولة إدراكهم فيه.

والطريقة الوحيدة للاحتفاظ بحرية الملاحة في الخليج كانت في التحالف مع الوهابيين، أو على الأقل الحصول منهم على ميثاق باحترامهم العلم البريطاني. إلا أن أسياد الهند هؤلاء اعتادوا على الإسراف في استعمال قوتهم لدرجة أصبحت معها وسيلتهم الوحيدة لإدراك غاياتهم. وكان الحقد الذي يثيره اسمهم، قد امتد حتى مسقط وأواسط الصحراء العربية. لذلك استقبل الوهابيون

ببرود أول مظاهر التودد التي أبداها البريطانيون تجاههم.

وقبل هجمات سعود الأخيرة بمدة طويلة، أي في الوقت الذي كان السلام قائماً بين بغداد والدرعية، كان قنصل إنكلترا المقيم في بغداد يحاول معرفة موقف عبد العزيز، فقدم له الهدايا الثمينة، وطلب منه برسالة فيها الكثير من التودد، أن يؤمن رسله المحملين ببريد الهند ويحميهم أثناء اجتيازهم الصحراء من البصرة إلى حلب. وقبل عبد العزيز هداياه، وأجابه بما اعتاد عليه من إيجاز:

«استلمت كتابك وسيمر رسلك بحرية طالما يسود السلام بيني وبين باشا بغداد».

وهكذا فإن عبد العزيز تعمد أن لا يعتبر المقيم البريطاني إلا كشخص في كنف باشا بغداد.

وهذا الاعتبار استبعد كل علاقة لاحقة بين عبد العزيز وبينه. ولكن عبد العزيز حافظ بكل إخلاص على تنفيذ وعده، فصدرت الأوامر الواضحة إلى مشايخ كل القبائل بحماية المراسلين البريطانيين في الصحراء. ولما اعترض سبيل واحد منهم، وبلغت الشكاوى عبد العزيز أمر بإجراء تحقيق دقيق. ولعل المذنب أدرك استحالة هربه، فأتى مرتمياً عند أقدام عبد العزيز ومسلّماً ما سرقه من الوثائق. ولم يفده خضوعه إذ أمر عبد العزيز بقطع رأسه، وبعد أن غمس الوثائق بدمه، أعادها إلى القنصل البريطاني.

وهذا ما جعل المراسلين البريطانيين يمرون من دون اعتراض في زمن عبد العزيز، طالما كان السلام سائداً بين بغداد والدرعية، ولكن هذه

الحماية توقفت حالما بدأت المناوشات، بأمر من سعود، ومنذ ذلك الوقت أصبحت الصحراء مغلقة، وصارت الرسائل تصادر، سواء عند الخليج أو في الصحراء التي تحده، بحيث لم تصل حلب إطلاقاً.

الهوامش

(١) ليس لهذه الرواية أي أصل، لأن القاتل قتل على الفور كما هو معلوم. وكان أول من طعنه عبدالله بن محمد بن سعود، بعد أن أصابه القاتل بجرح بالغ. ثم تكاثر عليه القوم وقطعوه إرباً. أما رواية المؤلف فلا بد أنها من الخرافات التي كان يرويها الشيعة في العراق.

(٢) لم نر ذكراً لهذه الرواية في مراجع أخرى، واعتقادنا أنها مختلقة من الأساس، ولعلها من الدعايات التي كان الأتراك يشيعون للإساءة لسمعة الإمام سعود بن عبد العزيز. وقد يكون أصلها في الشدة التي عامل بها أولاده تركي وناصر وسعد عندما طلبوا منه زيادة عطائهم وخراجهم فأبى ذلك. فخرجوا إلى عمان وهو غائب عن الدرعية، فغضب عايهم، ولكن مطلق المطيري ضمن لهم الأمان إن عادوا إلى الدرعية. الا أن غضب أبيهم لم يزل حتى أن ناصراً مرض وأقام شهرين مريضاً في الدرعية ومات ولم يعده أبوه. (راجع ابن بشر).

(٣) شيخ قبيلة شمر وكانت هذه القبيلة تميل مع الوهابيين حيناً وتحاربهم أحياناً.

الفصل السابع

الهجوم على البصرة

بعد أن بسط سعود سلطانه على شواطىء الخليج، فكر في التوسع إلى ما وراء تلك الشواطىء. ويحد تلك الشواطىء مشيخة إمام مسقط في الجنوب وميناء البصرة في الشمال. وكان الإمام يسالم الوهابيين حيناً ويحاربهم أحياناً ولا يصمد بوجههم إلا بمشقة بالغة لذلك لم يفكر سعود به في البداية، بل فكر في البصرة.

تقع هذه المدينة على بعد ثلاثين ميلاً من نهاية الخليج الشمالية، وقد بنيت في الصحراء، على شاطىء الفرات الذي يفقد اسمه باتحاده مع الدجلة قبيل البصرة ويسمى شط العرب. وفيضانات هذا النهر المنتظمة كفيضانات النيل، وإن كانت أقل أهمية، تأتي بالخصب لشواطئه الرملية. وتكسو هذه الشواطىء أشجار النخيل التي تحفظ ثمارها في سلال كبيرة مصنوعة من أعساف هذه الأشجار. وتعتبر هذه الثمار الغذاء السائد عند العرب، وتجارة هامة بينهم. وموقع

البصرة جعلها منذ القديم، سوقاً للتجارة بين الهند من جهة وبلاد الشرق وبعض أجزاء أوروبا من جهة أخرى. وكان ازدهارها كبيراً أيام الخلفاء الذين حكموا في بغداد، وجمعوا على شواطىء الفرات مع كنوز وتجارة الشرق، العلوم التي كانت في ذلك الحين منفية من أوروبا. ولم يستطع موقع هذه المدينة الممتاز مقاومة غرام الأتراك بالتخريب. فمنذ استلامهم الحكم فيها أفقروها كما أفقروا غيرها من المدن التي لم يبق منها إلا الاسم في وسط دولهم المترامية الأطراف. وأسوار البصرة، التي كانت تحيط مدينة مزدهرة وغنية، لم يبق اليوم منها إلا الأنقاض وبعض المنازل المبنية بالطوب.

لم يقرر سعود غزو البصرة إلا خلال عام ١٨٠٣ أي بعد سنة من رجوعه إلى الدرعية. وسواء كان السبب ما لاقاه من مقاومة في جدة، أو أنه وجد هذه الفترة من الراحة ضرورية لاستعادة نشاط جيشه، بعد ما لحق به من خسارة بسبب الطاعون، فإنه لم يحاول الاقتراب من حدود باشوية بغداد. وبعد أن عاد الوهابيون إلى وسط صحرائهم التي تفصلهم عن بقية الشرق، تناسى الأتراك وجودهم وظنوا أنهم أصبحوا في العدم. وفجأة بلغهم برعب أن اثني عشر ألف وهابي يسيرون نحو الفرات.

وعلى بعد أميال من البصرة تقع الزبير، وبالقرب منها نحو الصحراء يقوم حصن مبني من الحجر يجعل له منهل ماء قريب أهمية كبرى. ويمكن للزبير أن تجهز ما بين ستة وسبعة آلاف من الرجال. وبالنظر لوضعهم على حافة الصحراء فإنهم كعرب الصحراء معتادون على تحمل المشاق بينما يمتازون عنهم بالنظام. والأسوار التي تحيط بالمدينة ترتفع إلى علو أربعة عشر ذراعاً، وهي مبنية من الطوب المجفف في

الشمس. وهذا النوع من التحصين كثير الانتشار في مصر وفي جميع الأماكن المزروعة والمعرضة للغزوات.

وتلك الأسوار قد لا تخيف غيرهم من الأعداء لكنها تكفي للوقاية من رصاص هؤلاء وتوفر للقابعين وراء هذه الأسوار الحماية اللازمة وتؤمن لهم سهولة فتح فجوات لإطلاق نارهم في الأماكن التي يتجمع فيها العدو.

وموقع الزبير يجعل منها مدخل البصرة الرئيسي من ناحية الصحراء. وذات يوم، كان الوهابيون يستعدون لمفاجأة المدينة أثناء الليل، فاقتربوا من الأسوار والناس نيام. ولكن أحد الرعاة خرج قبل الفجر مع قطيعه، فرأى العدو وأنذر قومه، فنهض الكل إلى السلاح. ولما وجد الوهابيون أنفسهم في هذا الوضع انسحبوا وخيموا على ضفاف القناة التي توصل ماء نهر الفرات إلى المدينة.

وقامت في هذه الأثناء سرية منهم بالهجوم على الحصن القريب من الزبير. وكانت حاميته مؤلفة من سبعة جنود دافعوا عنه ولم يتركوا للوهابيين سبيلاً سوى الحصار، وهو سبيل طويل وشاق في صحراء محرقة. وأدرك الوهابيون ذلك خلال فترة قصيرة، فحاولوا الاستيلاء عليه بقوة المال، فلم يفلحوا في رشوة الحامية. وبعد سبعة أيام قرروا الانسحاب، فإذا بالقدر وكأنه قد ظهر يحارب بجانبهم، يسلمهم الموقع عندما قرروا الاستغناء عنه. والسبب هو أن أحد أفراد الحامية، وجد نفسه من دون ذخيرة، فنزل إلى المخزن بعد أن ترك الفتيلة مشتعلة عند الجدار. واتصلت نار الفتيلة بكمية من الذخيرة فأحرقتها وقتلت جميع أفراد الحامية. واستغل الوهابيون الانفجار فتسلقوا الأسوار من دون خطر.

أما الغارات على الزبير فكانت تردّ بالقوة، فتركها سعود وأراد مفاجأة البصرة للتعويض عن هذه المقاومة. ولكن سكان البصرة علموا بالأمر ولم يتيحوا له فرصة إكمال مشروعه. غير أن الفرقة التي أرسلت إلى البصرة التقت بطريقها في الصحراء برئيس إحدى أقوى القبائل العربية، وهو منصور شيخ المنتفق وشقيق حاكم الزبير، فاقتيد أسيراً بين يدي سعود، ولم ينجُ من الموت إلا باتباع الوهابية. فكانت لذلك أهمية كبيرة حيث فتحت أمام سعود باب محاولة الوصول إلى حاكم الزبير بواسطته. ولكن الحاكم ظل متمنعاً ولم تفد معه لا تهديدات سعود ولا رجاء أخيه. وقد صلم أذني الرسول الذي أتى لمفاوضته وكلفه بعد هذا التشويه بإبلاغ سيده الرفض.

وهكذا لم يكن الوهابيون بأحسن حظ في البصرة مما كانوا عليه في الزبير. ولعجزهم عن مواجهة الخطر، وتفضيلهم غزوات أسهل منالاً، ابتعدوا عن أسوار هاتين المدينتين وانتشروا في القفار ما بين البصرة وشواطىء الفرات. فأرسل باشا بغداد فرقة توصلت إلى زرع الرهبة في صفوفهم وتفريقهم بأكملهم. وهكذا كانت نهاية هذه الحملة التي فشلت بسبب افتقارها إلى عنصر المفاجأة.

وفي هذه الأثناء كان باشا بغداد يعد العدة بنشاط لمواجهة سعود. وقد رأينا أنه كان ينوي شن هجوم جديد منذ أكثر من عامين. وكانت الفرقة التي أرسلها لنجدة البصرة تشكل قسماً من الجيش المتجمع لتلك الغاية. وقد وصله من الباب العالي عن طريق حلب ودمشق الكثير من الخيام والذخيرة ومعدات القتال. وأرفقت هذه الإمدادات بالأوامر المستعجلة. وكان ملك إيران نفسه متفقاً من حيث المبدأ مع السيد الكبير، حول هذا الموضوع، لذلك لم يهمل أي شيء لدفع باشا بغداد إلى العمل. وقد ساءه ما توصلت إليه

الحملة الأخيرة وأدرك أسباب تخاذل الكيخيا، فهدد بالتوجه بنفسه لمواجهة الوهابيين. وأخيراً أدرك باشا بغداد أن المحافظة على سلامته الشخصية لا تترك له مجالاً للمراوغة، بعد عدوان سعود الأخير.

لذلك اهتم جدياً بوضع الخطط للقضاء على الوهابيين. وذاع خبر استعداداته في أنحاء الشرق، حتى وصل مسقط. وهذه المدينة هي عاصمة إمام تمتد مقاطعاته داخل أراضي البلاد العربية وشواطىء العربية السعيدة. وتقع المدينة على شاطىء البحر في ظل صخور شاهقة، وهي تدين بوجودها لجمال مينائها وموقعها المميز عند مدخل الخليج. وليس هنالك لا شجرة ولا نبات يخفف عن العين المبهورة حدة النور، ويجعلها تتحمل رتابة الرمال التي تعلوها الصخور من كل صوب، حتى العشب والحشائش قد جففتها قساوة الشمس فاختفت من شواطئها الزينة. وبقدر ما في وضعها من رهبة، بقدر ما في أهلها من براءة وصفاء يستحقان دراسة مراقب أو فيلسوف. والشعوب الرحل إذا جاورت الشعوب المتمدنة تشارك عادة في قبائح هذه الأخيرة مع الاحتفاظ بخشونتها. أما في أقاصي العربية السعيدة البعيدة عن مدن أوروبا، وعن انحطاط الشرق، فقد ظلت البساطة القديمة على حالها. وهكذا نجدها في كل صفائها في مسقط. ففي تلك البلاد تباشر الضيافة كما في العصور الأولى، والأملاك هي شبه مشتركة، والسرقة معدومة. ويستطيع السكان ترك منازلهم مفتوحة ليلاً ونهاراً بكل أمان من دون أن يساء ائتمان أصحابها. وكما لهؤلاء القوم براءة الأطفال فإن لهم كذلك بساطتهم، وهذا ما جعلهم ينقادون لتعاليم المصلح بعد أن أحاط بهم الوهابيون، وكان سعود حتى ذلك الحين يكتفي بتحالف موقت وتنازلات آنية، إلى أن أصبح يطلب المزيد كلما حصل على بعض ما يريد، وكأن زمن الانتظار قد فات.

كان بإمكان إمام مسقط المقاومة، بل كان بإمكانه مهاجمة سعود بنجاح، إذا ما ساعده باشا بغداد في ذلك. فبالهجوم على الوهابيين من الشمال ومن الجنوب في وقت واحد، كان يمكن القضاء عليهم أخيراً، أو على الأقل فإنهم كانوا سيضطرون للدفاع عن ولايتهم كما تحافظ مسقط على استقلالها. ولكي لا يذهب إمام مسقط ضحية أتعابه كان عليه أن يستوثق من أن باشا بغداد سيسانده ويسير معه في مخططه. وإلا فإن شعب مسقط سيتلقى وحده غضب سعود، وقد تؤدي ثقته في وعود كانت دائماً تكذبها الأحداث إلى أن يدفع وجوده ثمناً لها.

ولكي لا يترك أي مجال للصد، خرج سيد[1] إمام مسقط من تلك المدينة متجهاً نحو بغداد ليشاهد بنفسه استعدادات باشا بغداد. فوصل إليها في أول رجب ١٢١٩ (٥ تشرين الأول ١٨٠٤) وتأكدت لديه بألم، المبالغة التي رافقت صيتها. لم يجد أي استعداد في البصرة. فالناس كانوا مستقرين في منازلهم سعداء بجلاء رجال سعود وعلى غير استعداد لمهاجمتهم. وكان الهدوء التام يسود الضواحي وما زال جنود علي باشا داخل أسوار بغداد. وقد غضب سيد لتساهل علي باشا ومراوغته، وتبين أنه من العبث الوثوق بحليف هذه صفاته. كما أدرك أنه لن يستطيع الاستمرار أكثر من ذلك في كتمان ضرورة تحالفه مع سعود وقد أصبح أفضل له من تحالف كاذب قد يؤدي إلى هلاكه. وفي حالة من الامتعاض رأى لأول وهلة أن ينتقم من سكان البصرة انتقاماً مدوّياً.

وكان قد أتى بخمس عشرة سفينة تركها في الخور عند مصب الخليج، وتوجه إلى كبدة، وهي قرية تبعد مسافة ميل عن البصرة. واستقبله أحمد بن رزق وهو تاجر عربي من مواليد الزبارة هاجر

منها هرباً من الوهابيين واستوطن جوار البصرة. وكان يتمتع بسمعة طيبة بما له من مال وما قام به من أعمال. وحاول هذا تهدئة خاطر الإمام بأن يبين له ضرورة تحالفه مع باشا بغداد، ولكن الإمام رفض قطعياً الدخول في اتصالات مباشرة مع الباشا. وشكا مراوغته وتسويفه المتواصل وقارن ذلك بما أبداه هو من نشاط وما أعده وأنفقه في تجهيز سفنه الخمس عشرة. وطلب تعويضاً يعادل مائة ألف قرش رومي لهذا السبب. وبين أنه قد آن له أن يعلم أي موقف سيقف، بدلاً من أن يتأرجح بين وعود حليف مخادع وتهديد عدو قوي. وبالنهاية وافق على إعطاء الباشا مهلة أخيرة للسير ضد الوهابيين، فإذا ما انقضت هذه المهلة ووجد أن الباشا ما زال يخادعه، فإنه سيتحالف مع سعود ويصبح ألد أعدائه.

وكلف أحمد بن رزق بنقل تلك الرسالة إلى بغداد، ونظراً لبعد علي باشا عن الدرعية، فلا شك أنه كان يخشى سعوداً أقل مما كان يخشاه إمام مسقط. لذلك لم يجد في تهديدات هذا الأخير إلا دلائل خيبة أمله. والخطوة التي خطاها سيد بحد ذاتها كانت تحول دون أي اتفاق بينه وبين الوهابيين. لذلك اعتقد علي باشا أنه يستطيع عدم الإصغاء لإمام مسقط، ورفض قطعياً ما يطلبه من تعويض مدعياً أن مراكبه لا تفيد على كل حال. ومع ذلك فإنه وعد بالسير ضد الوهابيين، إنما دون أن يحدد يوماً معيناً.

ولدى تلقيه هذا الجواب، لم يبق أمام سيد سوى الانسحاب فباع سكان البصرة إحدى سفنه بثمان وثلاثين ألف قرش رومي وأبحر ببقية السفن. وعلى بعد أميال قليلة من الشاطىء انتقل إلى مركب صغير وترك قيادة أسطوله لأحد معاونيه، ولربما فعل ذلك للوصول بسرعة إلى مسقط، أو لخوفه من مهاجمة الوهابيين للأسطول عند

علمهم بإبحاره. وقد أودى هذا الترتيب بحياته. فقد هاجم مركبه بعض قراصنة العرب القواسم فأصيب برصاصة قتلته في ١٠ تشرين الثاني عام ١٨٠٤. وهكذا كانت نهاية هذا الأمير الذي انتهى استقلال مسقط بنهايته.

الهوامش

(١) هنالك بعض الالتباسات في ذكر أسماء أمراء مسقط. فجان ريمون يذكر أن سيفاً كان أخا الإمام الراحل، ولعله يقصد سعيداً، وهو الصواب، ولربما كان ذلك خطأً مطبعياً. أما المؤلف فيسمي الإمام القتيل في المركب سيد سلطان ثم يكرر اسمه سيداً عدة مرات. والاسم الصحيح هو سلطان بن حمد بن سعيد. وقد لاحظنا أن صاحب كتاب «لمع الشهاب» يطلق عليه اسم السيد سلطان أحياناً، فلعلهم كانوا يطلقون عليه اسم سيد في ذلك الحين.
ويسمي ابن بشر بدراً أخا سلطان، والواقع أنه ابن أخيه سعيد وهو الذي تولى الإمامة بعد سلطان، فقتله أولاد سلطان وتولى مكانه ابن سلطان، كما يذكر ابن بشر في مكان آخر من تاريخه ويشير بالمناسبة إلى أن بدراً كان ابن عم أولاد سلطان، وهو الصواب.

الفصل الثامن

حملة باشا بغداد ضد الوهابيين

ليس أغرب من سوء التفاهم الذي وقع بين الإمام سيد وعلي باشا في وقت كان من مصلحتهما أن يتفقا. وسوء التفاهم هذا أودى بحياة إمام مسقط، كما أدى إلى فشل الحملة التي كان باشا بغداد يعد لها منذ زمن طويل. وكان على علي باشا أن يجد حليفاً له في الصحراء العربية لكي يظفر بنقل الحرب إلى تلك الصحراء وحتى أبواب الدرعية. وكان لا بد له من الاستعانة بالقبائل العربية وهم وحدهم يستطيعون إرشاده إلى الينابيع وإلى أسباب البقاء التي خبأتها الطبيعة في بلاد مغلقة على سكان المدن. ولا شك أن إمام مسقط كان يستطيع ذلك، وقد شعر الباب العالي بالفائدة الكبيرة التي يمكن أن يقدمها. فكان منذ زمن بعيد يلح على والي بغداد بأن يتفق معه، من دون أن تنفذ أوامره. وبدلاً من أن يتقرب علي باشا من سيد، جعل منه عدواً له. وكان الحظ في هذا الظرف كذلك حليف سعود إذ انقلبت لصالحه تلك الجهود التي كانت تبذل لمحاربته.

وفي نهاية عام ١٨٠٤ الذي توفي فيه إمام مسقط على مركب في الخليج الفارسي، كان علي باشا يخرج من بغداد يرافقه شريف باشا من آقوشة وعبد الله باشا. وهذا الأخير هو نفسه الذي قام بحماية قافلة الحجاج في عام ١٨٠١. وكان قد التجأ إلى بغداد منذ ثمانية عشر شهراً أي بعد عودته إلى دمشق وتلقيه تهديدات جزار باشا. وسار علي باشا معهم إلى الحلة. وكان الجيش كبيراً، يرافقه العديد من الردفاء مع مدفعية ضخمة. وكانت هذه نتيجة استعداد سنتين، مما يتبع ذلك من نفقات، لذلك كان كل شيء يبشر بنجاح الحملة. (ولو أردنا تصديق رسائل بغداد لاعتبرنا أن عدد أفراد الجيش كان خمسين ألفاً يضاف إليه خمسة وعشرون ألف رديف).

تقع الحلة إلى الجنوب الغربي من بغداد، على ضفاف الفرات وعلى أبواب الصحراء. وفي ذلك المكان كانت تقوم مدينة بابل، التي لم يبق منها سوى أنقاض زائلة تكاد لا تدل على موضع مدينة كانت، في عصور خلت، الأولى في العالم. وليس أسهل من نقل الجيش والذخيرة الحربية من بغداد إلى الحلة. ولكن الصعوبة تبدأ بعد الخروج من الحلة، عند التوغل في الصحراء، والتشرد في رمال بعيدة الأفق على رأس جيش عديد، ينقل فوق هذه الرمال زاده وماءه وذخيرته ومدافعه الثقيلة. وتطلّع علي باشا بشيء من الرهبة إلى هذه الحواجز والأخطار المتعددة. وتبين أنه كلما زاد في المعدات وضعت هذه المعدات لتعددها، العراقيل في دربه. فكثيراً ما أدت الاستعدادات الضخمة إلى فشل الحملة مهما كانت حسنة التخطيط. وفي وضع علي باشا كان فشل الحملة سيعني انهيار الجيش بكامله، والموت الشنيع بعد العذاب القاسي.

وتردد علي باشا أمام هذه الاعتبارات. فقد وصل إلى الحلة في

تشرين الثاني من عام ١٨٠٤ وأمضى بقية العام من دون القيام بأي نشاط. وفي مطلع عام ١٨٠٥ أرسل نخبة من رجاله يعدون الأربعمائة لاستكشاف الصحراء، وشق طريق فيها للجيش. وكانوا بقيادة سليمان بك الكيخيا، وكان دليلهم فارس الجربا، وهو الشخص الذي استخدمه علي باشا في السنة السابقة. وفاجأت هذه الفرقة عين سعيد بعد مسيرة عدة أيام واحتلتها. وكانت القرية مأهولة بعدد من الوهابيين[1]، فأراد الكيخيا سليمان الانتقام منهم لما ارتكبوه في الإمام حسين ولكن فارس الجربا أقنعه بأنهم لم يكونوا أعداء علي باشا بالرغم من كونهم وهابيين، إذ إنهم لم يستطيعوا مقاومة سعود، وهم وحدهم في الصحراء، حيث الكل يخضع له. وقد أنقذت هذه الحماية أهل القرية. ورأى الكيخيا سليمان أن الماء بدأ ينفد، فخاف المفاجأة وعاد إلى الحلة.

وأرسل علي باشا على التوالي فرقاً عديدة أخرى، لم يكن حظها بأحسن من حظ الأولى. فقد فاجأ الوهابيون بعض هذه الفرق وقطعوها إرباً، ورجع بعضها الآخر من دون قتال، وهي سعيدة لاستطاعتها تلافي اللقاء مع العدو الذي كانت تطلب. ويئس علي باشا من هذه التجارب غير المثمرة فعاد إلى بغداد. وحل كل من شريف باشا وعبدالله باشا محله فلم يكونا بأحسن حظ منه، واضطرا بعد مدة قصيرة أن يعودا إلى بغداد على رأس جيش هزمت فرقه الواحدة تلو الأخرى، وانكسر من دون أن يحارب.

وكان سعود على علم باستعداد علي باشا منذ زمن بعيد. وقد اعتاد سماع تهديدات كانت الأحداث تكذبها في كل مرة، لذلك لم يغادر الدرعية. ولكنه سار لمواجهة الباشا حالما علم أن هذا الأخير قد غادر بغداد، فوصل إلى عين سعيد بعد أن تركها الكيخيا

سليمان بثلاثة أيام. وقد أبدى سعود عدم رضاه عن القبائل العربية التي تسكن تلك المنطقة وشكا التمهل واللامبالاة التي بدت منهم لترك العثمانيين يفاجئونهم من دون أن يرسلوا له أي خبر بما حدث.

وبالرغم من أن علي باشا لم يجد في عين سعيد ربحاً يذكر، فقد أراد سعود الاقتصاص من سكان المنطقة، ظناً منه أن معاقبتهم ستعطي درساً مفيداً للوهابيين بحيث يصبحون أكثر حذراً في المستقبل. فعقد لهذه الغاية اجتماعاً لمشايخ قبائلهم، فكان نفور هؤلاء من تهديدات سعود يوازي ارتياحهم للمعاملة الحسنة التي لاقوها من سليمان كيخيا. لذلك تركوا رايات سعود، وانتقلت ستة عشر ألف عائلة لاجئة إلى باشا بغداد. وكان هذا هو الربح الوحيد الذي جناه علي باشا من الحملة، وهو يعود لمعاملة سعود الشديدة وليس لقوة سلاح الباشا.

هكذا كانت نهاية الحملة التي نالت الكثير من إطناب باشا بغداد، ودام الاستعداد لها عدة سنين، وترقب الباب العالي أن تكون القاضية على سعود. وأثبت حظها العاثر قوة هذا القائد وضعف العثمانيين أكثر مما كانت ستثبته هزيمة منكرة.

وفي الصحراء المترامية الأطراف التي يسيطر عليها الوهابيون وحدهم اليوم، تجتمع كافة المشاق ضد أعدائهم، والوهابيون وحدهم يعرفون مقاومتها. فهم لا يحتاجون إلا إلى القليل لتحمل العطش والجوع والقيظ. أما الأعداء فيحتاجون إلى الكثير لمقاومة هذه المشاق، ناهيك عن منازلة الوهابيين. لذلك كانت الطبيعة حليفة الوهابيين، حيث كانت تجمع العقبات كلها في وجه أعدائهم، فتؤمن لهم النصر قبل المعركة. وهكذا أصبح الوهابيون أسياد الجزيرة العربية

بكاملها، في مأمن من هجمات العثمانيين، الذين باتوا لا يستطيعون القتال إلا دفاعاً وعلى أرضهم فقط.

فمن السهل إذن التنبؤ بأن جميع المعارك التي ستقع بعد اليوم بين العثمانيين والوهابيين ستكون هجوماً من الوهابيين ودفاعاً من أعدائهم. ونادراً ما كان أسلوب الدفاع موفقاً حتى لدى شعوب أوروبا، لذلك فلا بد أنه سيكون حاسماً في بلد مفتوح كآسيا الصغرى، ولدى شعوب غير منظمة، يجعلها الخوف من هجوم مفاجىء تستسلم فوراً من دون مقاومة. وقد أدرك الوهابيون هذا الوضع فأصبحت جميع معاركهم مفاجآت. وكانوا ينسحبون دائماً متى بدا لهم أن العلم بوجودهم سيؤدي إلى المقاومة.

وهذا الأسلوب في الغزو، جعل أجدادهم العرب ذوي بأس منذ أجيال عديدة، ولكن انقسامهم حتى اليوم إلى الألوف من القبائل المختلفة، جعلهم يستهلكون قواهم في معارك داخلية. وقد صهرهم عبد الوهاب في أمة واحدة، وأعطى هذه الأمة مجموع القوى التي كانت مبعثرة قبله. وباجتماع هذه القوى، أصبح هذا الشعب ذا هيبة تهدد الشرق كله باحتلال قريب.

الهوامش

(١) لعل المقصود بهؤلاء عرب الظفير، ويذكر ابن بشر أنهم أضافوا في العام المذكور غزواً أتاهم من بوادي الشمال، فغضب سعود عليهم وشن عليهم الغارات. ثم بعد ذلك «أعتق غالبهم من القتل وقتل من عامة الظفير قتلى كثيرة من كل قبيلة... فمنهم من هرب إلى المنتفق وبعضهم هرب إلى جزيرة العراق».

الفصل التاسع

دخول المدينة

لما كانت تعاليم عبد الوهاب تستند إلى حسن الخلق، فقد أعادت إلى عالم الوهابيين التقشف الذي كان عبد الوهاب يتمثل به، وكان أتباعه يجدون فيه مثالاً لبساطتهم إذ كان يشاركهم الحرمان العام. وكان البذخ منفياً عنهم، والفاقة غريبة، لأنهم ما كانوا يطلبون من حاجة سوى الحاجات الضرورية، وقد تمكنوا بتقشفهم من الاستغناء حتى عن هذه الأخيرة.

وهذه المبادئ كانت في جميع الأزمان مبادئ الأنبياء الذين أرادوا أسر الجماهير. وبها جعل عبد الوهاب صوته مسموعاً، وبها كان عبد العزيز يوسع يومياً حدود دولته، حتى أخضع بالنهاية الجزيرة العربية بكاملها. وبعد أن توصل بقوته إلى الهدف، قلّت الحاجة إلى التقيد بهذه المبادئ، بل صار من الصعب التقيد بها. واحتفظ عبد العزيز، المخلص في إصلاحه، ببساطته البدائية، في وسط كنوزه.

وورث سعود عنه القوة، ولكنه لم يستطع أن يرث جميع صفاته.

وهكذا انتشر بذخ آسيا في قصره، هذا البذخ الذي ظل حتى ذلك الوقت مجهولاً في الدرعية. وأسرف في استعمال أقمشة الهند، وفي فرش أفخم الأثاث. وكان لباسه من الغنى بقدر ما كان لباس أبيه من البساطة، فكان يتصنع العظمة والأبهة في ثيابه، حتى قيل إن عباءته وحدها كانت تكلف مائتي ألف قرش.

وقلد سعود أمراء الشرق في تصرفاتهم، كما قلدهم في بذخهم. فأبعد أشقاءه عن الإدارة، وحرمهم من ثقته، فأعطاها كاملة لرجل غريب هو الشيخ منصور الذي استغل بذور الشقاق المنتشرة في العائلة وسيطر على أفكاره. وقد شارك هذا الغريب في سطوته، وأودعه السلطة فأصبحت له وظيفة الوزراء الشرقيين، ولم ينقصه منها سوى الاسم[1].

وهذه نتيجة حتمية للاستبداد. فالحاكم المستبد يفضل السير مع أهوائه على العناية بإدارة بلاده عندما يشعر أنه أصبح سيد بلاد عظيمة. وهذا وحده كان كافياً لتفسير هبوط مستوى تصرفات سعود، واقترابها من الاستغلال. فبعد أن تحرر من مبادئ عبد الوهاب، أظهر سعود احتقاراً نحو أهله الذين ظلوا يحتفظون ببساطتهم الأولى. ولم يجنبهم سوء المعاملة، ولا دفع الإتاوة، حتى أنه انتزع من حماته بنت الشيخ، بدون أي أصول، بستاناً جميلاً جداً كان ملكها. وهكذا الحال مع الفرق الجديدة، فإنها لا تحارب استغلال السلطة، إلا كوسيلة للتوصل إليها، واستغلالها بدورها.

وحملت هذه التصرفات العثمانيين على الأمل بأن تؤدي إلى انهيار

قريب لحكم سعود. ولم يتحقق أملهم لأن الخلافات ظلت محصورة ضمن جدران قصره ولم تظهر إلى الخارج، بينما زادت انتصارات سعود في امتداد سلطته.

قاومت مسقط عبد العزيز طوال حياته. واحتفظ آخر إمام باستقلاله حتى وفاته، ولو اضطره تأثير الوهابيين في عائلته إلى التنازل أحياناً عن بعض اختصاصاته. وكان يشك بأن أخاه سعيداً على اتصال مع الوهابيين، وإن كان لم يتظاهر بذلك، طالما كان الإمام على قيد الحياة. ولكنه رفع قناعه حالما انتشر نبأ النهاية المحزنة التي لاقاها الإمام في الخليج الفارسي. وقد ترك الإمام ولداً كان وريثاً له بحكم القانون. ولكن سعيداً ألغى مفعول ذلك القانون متكلاً على تأييد سعود له. وحاول الوريث، دون جدوى، إظهار حقه، لأنه لم يجرؤ على مقاومة عمه، وهكذا نصب ابن عمه بدر بن سعيد إماماً في مسقط، بفضل ما كان يفرضه سعود من رهبة. وسواء كان إيمان بدر حقيقياً، أو كان يرى فائدة في التظاهر بالإيمان، فإنه ظل يظهر بمظهر الوهابي المؤمن كما فعل أبوه من قبله. ولم يقف اعترافه بجميل سعود عند هذا الحد، بل كان يدفع له جزية ضخمة سنوياً، بحيث باع استقلال مسقط بالكرسي الذي جلس عليه.

وقد وقعت هذه الحوادث بنهاية عام ١٨٠٥. وأما ما سبقها من خلافات في العام نفسه فليس له أهمية تذكر، فإن سياسة عبد العزيز والانقسامات التي أثارها في عائلة الإمام قد هيَّأت لهذه النتيجة التي جنى سعود ثمارها من دون عناء. وهكذا نرى أن تأثير عبد العزيز استمر إلى ما بعد وفاته، وهذا التأثير أثبت في عدة مناسبات أنه كان سياسياً بارعاً بقدر ما كان قائداً صالحاً.

لم يحول سعود نظره عن الشواطئ الغربية على البحر الأحمر بالرغم من انشغاله في إثارة الوضع في مسقط. وقد رأينا كيف اضطر إلى رفع الحصار عن جدة والمدينة وكيف أنه ترك حامية مؤلفة من مائتي رجل في مكة[٢].

ويبدو أن تلك الحامية لم تتحرك من مكة، بعكس فحوى الشائعات التي أطلقها العثمانيون. ولكن وفاة عبد العزيز والمسافة الطويلة بين مكة والدرعية، قللتا من تأثير الوهابيين على مكة وإن استمر هذا التأثير على كل حال.

ومكة كما هو معلوم تتمتع بتقديس خاص لدى المسلمين. والحج إليها واجب على كل مسلم مرة بالعمر على الأقل. لذلك تتجمع فيها جماهير الحجاج من أقاصي آسيا وأفريقيا، عاماً بعد عام. ويتجمع حجاج بلاد المشرق في دمشق، كما يتجمع في القاهرة حجاج بلاد المغرب. ويؤلف الحجاج قوافل، تجتاز الصحارى الواسعة وتنتشر من أقاصي الهند حتى حدود أفريقيا. لذلك فإن حماية هذه القوافل ليست فقط واجباً دينياً على السلطان بل هي كذلك مورد رزق ضخم بما يدفعه الحجاج من رسوم مرافقة وما تدره التجارة من أرباح للبلاد.

وهكذا فإن دخول مكة كان ضربة رهيبة بالنسبة للباب العالي. ولما كان الأخير مشغولاً في مقاومة ثائرين أكثر خطراً تحت أسوار الآستانة، فقد وجد أن اشتراكه مباشرة في مقاومة الوهابيين أمر يفوق طاقته. فأراد على الأقل أن يرسل إلى جدة حاكماً يستطيع موازنة تأثير سعود، ومد بعض العون إلى قائد القافلة. ولكنه فتش من دون جدوى عن حاكم يليق بهذه المهمة. وقد استنتجنا هذا من

تلك التغييرات المتكررة والتعيينات التي دلت على أنه لم يكن لأي باشا المقدرة على تحمل تلك الأعباء. ومر أثناء ذلك عام ١٨٠٣ فلاقت القافلة أقسى معاملة في مكة. إذ استوفى الوهابيون مبلغ ثمانية قروش من كل حاج وهو رسم فاحش كان غير معمول به حتى ذلك الحين. وزيادة في الإذلال، مارس سعود تمييزاً جديداً بين العرب والعثمانيين الذين دفعوا رسوماً مضاعفة، وقد دفعوها عن طيبة خاطر، وهم سعداء لشرائهم الدخول إلى مكة بهذا الثمن، حيث كان بإمكان الوهابيين منعهم من الدخول بشكل تام. غير أن هذا المنع كان سيحرم سعوداً من مورد رزق كبير. وللاحتفاظ بهذا المورد سمح سعود للحجاج بإجراء كافة الطقوس الدينية بحرية تامة، ووضع رسماً خاصاً لكل من هذه الطقوس.

ولما علم الباب العالي باستيفاء هذه الرسوم حاول في عام ١٨٠٤ إيجاد وسائل لمنعها. ووضعت قافلة الحجاج بعناية باشا دمشق، الذي نال بهذه المناسبة ثالث منصب في الدولة ولقب أمير الحج. وكان من المهم تسليم هذا المنصب لرجل حاذق وحازم يستطيع بالتفاوض تلافي ما لا يستطيع صده من الاشتباكات. ووقع الاختيار على إبراهيم باشا من حلب للقيام بهذه المهمة.

وفي تركيا كما في كل الدول المستبدة، لا يعطي الأصل أية ميزة، حيث الرعية كلها عبيد السيد الكبير. وانهيار الأخلاق، الذي وصل في مصر وفي بعض الولايات الأخرى إلى مستوى غاية في الانحطاط، لم يترك مجالاً لدى الرجال للوصول إلى غاياتهم سوى باستعمال جمال الشكل وزهوة الشباب. أما في مناطق أخرى حيث ظلت الأخلاق أقل انحطاطاً، فظلت الوظائف تعطى لمن يستحق، والتقدم السريع يصبح أكثر احتمالاً حيث تقل سطوة السيد الكبير.

والواقع أن المدن الكبيرة وإن كانت تخضع له بالظاهر، فإنها بالحقيقة تخضع لقوانين خاصة. فكأنها جمهوريات صغيرة تسود فيها سلطة الباب العالي حيناً، ويعلى عليها أحياناً، وتهمل في أغلب الأحيان. وهكذا تبرز المؤامرات والاختلافات التي تخلقها الفوضى في كل مكان، وتعيش هذه النزاعات الداخلية لتصبح مورد رزق للمستغلين.

ولد إبراهيم باشا في حلب، في أدنى طبقات الشعب، وكان في بداية عمره سائس إبل، وكانت ثقافته شبه معدومة، فلم يتعلم القراءة ولا الكتابة. ولكنه نال من الطبيعة صفات نادرة تحجب تلك التي تعطيها الثقافة، وإن كانت لا تعوض عنها إطلاقاً. وقد كان لمهارته، وللتأثير الذي استطاع التوصل إليه في مدينة تسودها النزاعات الداخلية الفضل في رفعه تدريجياً إلى رتبة متسلم. فلما أصبح حاكماً قام ببث التفرقة في صفوف الإنكشارية[٣] وبإضعافهم وهم أسياد المدينة منذ زمن طويل. وقد أعطاه اتصاله بالصدر الأعظم لدى عودته من مصر في عام ١٨٠١ وسيلة الإطاحة بهم. فنفى بعضهم وعمل على قتل البعض الآخر. وهكذا استطاع إعادة سلطة السيد الكبير والاحتفاظ بها في المدينة، وهذا ما لم يستطعه أي باشا قبله. وما جعله يستحق زيادة المديح هو أن هذه السلطة التي ظلت كاملة بين يديه، لم يستطع خلَفه الاحتفاظ بها عندما نقل إبراهيم باشا من حلب إلى دمشق.

وقام إبراهيم باشا بقيادة القافلة في عام ١٨٠٤ فلم يلاق أي اعتراض من الوهابيين حتى وصوله إلى المدينة. ولم يكن الوهابيون يحاصرون المدينة آنذاك، ولكن سعود كان يضايقها بإيقافه جميع المؤن التي تستجلب عادة من الجزيرة العربية. فأنجد إبراهيم باشا سكان المدينة وقد حاقت بهم المجاعة واقتسم معهم الزاد المعد

للقافلة. وقد اتهمه البعض بأنه اغتنم فرصة الضيق الذي كانوا يعانون، ليطلب أسعاراً فاحشة لهذا الزاد. وليس ما يمنع من تصديق ذلك لأن إهمال هذا الربح واعتباره غير شرعي كان يقتضي التحلي بإحساس مرهف، وهو أندر الصفات الطيبة لدى العثمانيين، حيث أي شيء يباع ويشترى.

وانتقل إبراهيم باشا من المدينة إلى مكة. وتلافى الحجاج في حمايته بعض المعاملات السيئة التي لاقوها في العام السابق. وضحى تضحيات كبيرة في سبيل ذلك، ودفع ضريبة لا أصل لها بدلاً من احتمال عار إتاوة عامة. ولئن لم يدفع الحجاج أي ضريبة لسعود فقد دفعوا مبالغ كبيرة لإبراهيم باشا، ولم يتخلصوا من الوهابيين إلا ليقعوا في قبضة تفوقهم جشعاً.

وعاد أمير الحج إلى المدينة فترك فيها لأهلها بعض المؤونة قبل مغادرتها. ولكن هذه المؤونة لم تكن كافية لأن تعطيهم الأمل في المقاومة. ففتحوا أبوابهم للوهابيين بعد أيام قليلة، ودخل سعود المدينة في نهاية عام ١٨٠٤ فأظهر الكثير من الاعتدال، ولم يستعمل العنف. وكان قد أصبح سيد الجزيرة بأكملها، ويستطيع بإشارة واحدة فتح أو إغلاق كل مواصلات المدينة. لذلك اكتفى بأن أشعر السكان بأنه من المستحيل التملص من سلطته، وأن الخطوات التي سوف يقترحها الباب العالي لن تعود عليهم إلا بالأذى. ولهذه الغاية دعا كبار المشايخ والعلماء إلى اجتماع عام وقال لهم: «اعترفوا بقوانيني وائتمروا بأمري وسأقوم بحمايتكم، أما إذا بقيتم تحت سلطة السيد الكبير، فانتظروا منه وحده سبل معيشتكم».

وهكذا أصبح سعود سيد المدينة من دون أن تراق قطرة واحدة من

الدم، واستطاع بحامية بسيطة أن يحافظ على هذا النصر الهام.

وكان احتلال المدينة ضربة قاضية لسلطة السيد الكبير في الجزيرة العربية، إلا أنه لم يترك أي أثر في بقية ولاياته. وذلك خلاف ما حصل يوم أن استولى عبد العزيز على مكة قبلها بثلاث سنوات. فعندها ظنه الناس على وشك احتلال آسيا الصغرى فكان جزعهم عظيماً. ولربما كان بإمكانه عندئذ إخضاع فلسطين وسورية بكاملها من دون عناء. واستعد اليهود في دمشق وحلب للهرب من هاتين المدينتين، خائفين كعادتهم في كل زمان ومكان، مما قد يلحق بهم من اضطهاد في كل مناسبة، وها هم قد أطلقوا الإشاعات بأن الوهابيين يسيرون للاستيلاء على المدينتين وأنهم رهنوا ما قد ينالهم من أسلاب سلفاً. وما يصف هذا الشعب اليهودي أحسن وصف هو أن جزعه لم يطفئ لديه غرامه الآخر بالمال، فقد أشيع بأن اليهود أنفسهم أقرضوا الوهابيين على تلك الرهنيات. ولكن الأحداث أبطلت تلك المخاوف، وتبين أن الوهابيين يهتمون بتقوية أنفسهم في ما بين البحرين ويهملون الفتوحات البعيدة. وارتاح العثمانيون في آسيا الصغرى فتركوا بطيبة خاطر الجزيرة العربية تقع كلها في قبضة سعود.

وعلى كل حال كان الباب العالي قد تبين بغبطة أن طمع سعود قد غطى على تعصب عبد الوهاب. ولم يشكّ بأن الواردات التي تؤمنها القافلة إلى مكة ستكون سبباً كافياً لحماية هذه القافلة باستمرار. ولما كان السيد الكبير قد اعتاد أن لا يكون له في مقاطعاته الواسعة من السلطة سوى الاسم، فقد سره أن يحتفظ بهذا الاسم أيضاً في قيادة قوافل الحجاج. وبما أن الحماية التي وفرها للقافلة قد احترمت فإنه سيكتفي بأن تؤمن هذه الحماية دوماً. أما

الإتاوة التي كان يخضع لها الحجاج فإنها لم تبد غريبة في نظره، في دولة لا تدين باستمرارها في الوقت الحاضر، إلا لوجود مثل هذه الإتاوة.

وهكذا فإن السيد الكبير لم يتخذ أي إجراء كان يجب اتخاذه لدى حكومة أكثر اهتماماً بأمورها. ولما كلف عبد الله باشا في عام ١٨٠٥ بمرافقة القافلة، لم يزود بأية مساعدة خارجة عن المألوف لهذه المهمة الصعبة، ولم يرافقه في الحملة سوى ما جمع من جنوده في دمشق. وعبدالله باشا المذكور هو نفس عبدالله باشا الذي رافق القافلة في عام ١٨٠١ وساعد الشريف غالب في انسحابه. وقد أبعد منذ ذلك التاريخ والتجأ إلى علي، باشا بغداد، وأمنت له حماية هذا الأخير استعادة رضا الباب العالي والرجوع لحكم دمشق.

واصطدم عبدالله باشا بسرية من الوهابيين قبل وصوله إلى المدينة، فهزمهم. وكان جنوده يتلهون بسلب المنهزمين عندما فاجأتهم سرية أكبر عدداً وأجبرتهم على الانسحاب. وكان هذا هو العائق الوحيد الذي صادفته القافلة ما بين دمشق والمدينة. وقد رأينا أن سعوداً لم يترك في تلك المدينة سوى حامية ضعيفة تبين أنها لم تمنع الحجاج من دخول البلدة واكتفت بطلب مبلغ كبير في ذلك السبيل.

كان سعود أثناء ذلك في الدرعية وقد تبين ما يمكن أن يحدثه من انقلاب وجود أمير الحج في المدينة. ولتلافي ذلك اتخذ نفس الأساليب التي سبق أن استعملها لاحتلال المدينة أي أنه قطع عنها المواصلات. وفي مدة قصيرة بدأ السكان يقاسون مجاعة كبيرة، زاد في حدتها اقتراب القافلة. فأصبح القمح نادراً وارتفع سعر الشملة منه إلى ٧٥ قرشاً. وبيع خروف واحد بمبلغ ٢٥٠ قرشاً. واضطر

الناس إلى استعمال طحين من بذور التمور. وصارت الحمير والخيل طعاماً إذ تعذر الاحتفاظ بها وتوفير العلف لها. ويقال إن قاضي المدينة محمد كوسى أفندي اضطر إلى تضحية أربعة عشر كيساً من المال للاستمرار في علف حصان كان قد جهز للهرب عند الحاجة.

كان وصول عبدالله باشا والمدينة في هذه الأوضاع، فاستقبل لا كمنقذ، بل كالسبب غير المباشر لهذه الصعاب. وترقب السكان ذهابه بفارغ الصبر، لذلك ترك المدينة وتوجه إلى مكة. وطبقاً لعادة متبعة منذ القدم، يستقبل عرب الصحراء الحجاج على مسيرة أربعة أيام من مكة، فيأتونهم بالإبل للتعويض عن الإبل المفقودة ويسهلون عليهم اجتياز الصحراء التي تفصلهم عن البلد الحرام.

أما في هذه المرة فقد اختفى أصحاب الإبل مع إبلهم وحمولاتها في اليوم الثاني. فأصابت هذه السرقة القافلة بأضرار بالغة وكانت بداية لخسائر تفوق ذلك. فلدى وصولهم قرب مكة اضطروا إلى دفع ضريبة بلغت مائة كيس[٤] وعلاوة على ذلك أصر الوهابيون على استيفاء عشرة قروش عن كل دابة وسبعة قروش عن كل قنطار من الحمولة.

ويكون جبل عرفات القريب من مكة المكرمة موضع زيارة خاصة. وقد اضطرت القافلة إلى دفع مائة كيس لصعود الجبل ومائة كيس أخرى للنزول منه. وهكذا أصبحت كل خطوة سبباً لدى سعود لفرض الإتاوة، ولم يتخلص الحجاج من الدفع إلا بعد أن توغلوا في الصحراء.

واستاء عبدالله باشا من هذه المعاملة وحاول الانتقام، إذ اعتبر

السكوت بمثابة موافقة ضمنية على دفع الإتاوة. والعداوة وإن لن تثمر ستبرهن على كل حال أن هنالك فكرة المقاومة. لذلك سار لملاحقة أصحاب الإبل الذين سرقوه وأدركهم في الصحراء، فقتل عدداً منهم وشرد الباقين. وقد فاز في هذه المعركة ولكن السوء أصابه من جرائها. فقد لحقت به سرية من الوهابيين وقطعت عليه السبيل عند نهر جارف على طريق دمشق، ولم يستطع عبد الله باشا اجتياز النهر إلا بعد أن دفع ستمائة كيس.

وهكذا كانت نهاية موسم الحج، وهي الأسوأ منذ بدء ممارسة هذا الطقس. وكانت طلبات سعود تزيد كلما نال المزيد، ولم تقف عند حدود، فأبلغ عبد الله باشا بأنه لن يسمح بعد ذلك للقوافل بأن تسير بحماية السيد الكبير، وأنه سيقوم بتدبير حماية الحجاج بنفسه بأن يرسل سرية إلى مزيريب[٥]. وأخيراً منع الحجاج من عزف الموسيقى التي كانت ترافقهم عادة، ومن السير بمظاهرة حاملين ثوب الكعبة.

الهوامش

(١) بعد مقتل عبد العزيز كان من الضروري حماية الإمام. ومن هنا ما أحاط به سعود نفسه من حاشية ومن حراسة. وقد أورد ابن بشر وصف ذلك تفصيلاً في الحديث عنه. ولم يكن ذلك الوضع لا استبداداً ولا تقليداً لسلاطين آل عثمان أو حكامهم. والفرق في السيرة واضح في رواية المؤلف، ولا يحتاج إلى تأويل. واعتقادنا أن ما كان يروى عن سعود من قبل أعدائه في دمشق وبغداد وحلب قد أثر نوعاً ما على المؤلف وإن كان يدعي عكس ذلك.

(٢) ذكر المؤلف في نهاية الفصل الرابع أن عدد الجنود الذين تركهم سعود في مكة بلغ الأربعمائة. ويبدو في الواقع أن عددهم لم يتجاوز المائتين، وهذا الرقم ذكره أيضاً ابن بشر في روايته، كما ذكره جان ريمون في تقريره.

(٣) الإنكشارية أو النيجرية أو الينيشرية أو الينكشرية، كلمة تركية مكونة من كلمتين هما: يني بمعنى جديد، وجري أو جريك ومعناها حي، ويقال إن أصلها أيضاً يني وعسكري. وكانت الكلمة تطلق على الجنود المشاة الذين وضع نظامهم السلطان أورخان عام ٧٢٦ هجري وهم على الغالب جماعات من المسيحيين ومن أسرى الحرب. وقد تبنى هؤلاء الحاج بكتاش وهو درويش اعتقد الأتراك بصلاحه، تجنح طريقته إلى الباطنية. وكان اعتماد الدولة عليهم كبيراً في جميع الحروب لشدة بأسهم وتعصبهم لسيدهم. وتطرق الفساد تدريجياً إلى نظامهم، خصوصاً بعد أن تم إدخال مختلف الفئات من الناس في صفوفهم، كما تطرق إلى بقية أمور الدولة العثمانية، بعد القرن العاشر للهجرة. فصاروا يتطاولون على الناس وعلى شؤون الدولة إلى أن حاول سليم الثالث الحد من سلطتهم بإحداث نظام أوروبي في الجيش. ولم ينجح سليم الثالث في محاولته، ولكن محمود الثاني الذي خلفه، استطاع القضاء عليهم فنفى الكثير منهم، ثم أبادهم عام ١٨٢٦ ميلادي في معركة سميت «الوقعة الخيرية»، وقعت بتاريخ ٩ ذي القعدة ١٢٤١.

(٤) كان كيس المال يعادل خمسمائة قرش.

(٥) مزيريب قرية في جنوب سورية، ما زالت موجودة، وتمتاز حالياً بشلالاتها.

الفصل العاشر

الهجوم على مناطق الإمام علي والزبير والسماوة

سبق أن ذكرنا الصعوبات التي تعترضنا في اختيار الصحيح من الأخبار التي تصل إلينا عن الوهابيين. ورواية التاريخ لا يمكن أن تكون كاملة، خصوصاً إذا كان موضوعها حوادث قريبة. ويبدو لأول وهلة أن الشك في صحة الأحداث التي تعاصرنا لا يمكن أن يتطرق إلى أي منها. ولكن هذه الأحداث قد اختلطت وتشابكت إلى حد جعل من الصعب تبويبها، بالإضافة إلى أن قرب حدوثها يحول دون إعطائها مركزها الحقيقي. وفي غمرة من التفاصيل المختلفة، تبدو جميعها بنفس الأهمية، ويبقى من الصعب تبين خطوط الأحداث الصالحة للحفظ. وقد لا يستحق الذكر من بين ألف حادثة سوى تلك التي كانت لها نتيجة واضحة. وأما البقية فتحمل معها الشك والبلبلة. لذلك يجب الاختيار، ولا سبيل إلى الاختيار مسبقاً، قبل أن يغربل الزمن الأحداث التافهة، وتختار الأجيال القادمة تلك التي من حقها فقط أن تدخل التاريخ.

ولا تغيب التفاصيل غير المفيدة إلا بعد انقضاء عدة سنوات حيث يمكن مشاهدتها من بعيد، ويمكن تشبيه ذلك بمن ينظر من بعيد إلى أرض متعرجة فلا يشاهد على بعده تعاريجها البسيطة. أما الجبال والتضاريس المرتفعة فيمكن مشاهدتها في الأفق، وتمييز الفرق بين أشكالها وارتفاعها. وهكذا تتخذ الأحداث الهامة مع مرور الزمن درجة الأهمية التي تستحق وتظهر صفات تأثيرها الحقيقي. بينما تغيب الأحداث البسيطة مع البعد. وعليه فإن حاجز الزمن هنا يعطي النتيجة ذاتها التي يعطيها بعد المكان، في نقاط الأفق البعيدة. ومن هنا نستخلص أننا، لا نستطيع بصورة عامة، كتابة تاريخ صحيح للأحداث التي حصلت في أيامنا.

ولا بد من مواجهة هذه العقبات أمام جميع الأحداث التي تعاصرنا. ولا بد كذلك أن يضاف إليها العديد غيرها عندما يتعلق الأمر بشعب جديد، يفصله عنا الدين والإقليم، وحيث تنسى الحوادث في لحظة وقوعها. وكثيراً ما تعزى لبعض الرؤساء مشاريع ضخمة لم تكن لديهم في أي وقت القدرة على تنفيذها، ولا تقود خطاهم بالواقع سوى الصدف وحدها.

وعلى كل، فإن شعباً ينشد السلب دون المعارك، لا تهزه الأحداث، ولا يهتم إلاّ بالنتائج. ولأن هذه النتائج أعطتهم السيطرة على الأراضي المقدسة، فأصبحوا رؤساء لدين أصلحوه، بات تاريخ هذا الشعب يثير الكثير من الاهتمام في أوروبا.

لذلك أهملنا في هذا العرض التاريخي جميع الحوادث غير الهامة. ومن هذه الحوادث الغارات الكثيرة التي جرت أيام استسلام المدينة، وبالقرب من بغداد، وحتى أبواب دمشق في الصحراء التي تفصل

سورية عن الفرات. وهذه الغارات التي كان يقوم بها عدد قليل، كانت تقتصر على مباغتة قرية أو سلب قافلة، ولم تكن لها بحد ذاتها أهمية تذكر. ولكن نتائجها كانت هامة إذ أبطأت المواصلات التي كانت قائمة عن طريق حلب ودمشق بين الهند من جهة وبين الغرب من جهة أخرى، إلى أن عطلتها نهائياً، بقطع جميع السبل التي كانت تسلك تلك المواصلات.

ولربما كانت معلوماتنا عن سلطة الوهابيين وعن وسائلهم لنشر هذه السلطة مبالغاً فيها في البداية. والواقع أن هذه الجماعة لم تحرز أي تقدم، لا على شواطئ الفرات، ولا عبر الصحراء التي تفصلها عن مصر وسورية، منذ نشأتها حتى الزمن الذي نتحدث عنه الآن. ولكنها أصبحت سيدة الجزيرة العربية بكاملها، ولم يبق فيها من يقاومها سوى جدة.

وكان سعود، بعد دخوله المدينة، قد أمر بعدم ذكر السيد الكبير في الصلوات العامة وبوضع اسمه مكانه. وقد رأينا ما قاسته القافلة الأخيرة إلى مكة. وكان لجميع هذه الأحداث أهمية كبيرة لأنها استهدفت محج الدين الإسلامي، ولأن الدين يشكل القوة الأساسية في الدولة المستبدة. لذلك ساد الاعتقاد بأن هذه الأحداث ستترك أسوأ الأثر في تركيا. ولكن هذه المخاوف لم تتحقق، والفوضى التي تزايدت آنذاك في جميع ولايات السلطة العثمانية جعلت الدولة تهتم بتدبير أمور آنية، فأهملت أموراً أكثر أهمية، كان الأحق أن تطوى كل تلك الأمور في سبيلها. وفي ولايات شغلتها المنازعات الداخلية، أهمل مصير تلك المقاطعة النائية ونُسي. وهكذا فإن ضعف السلطنة العثمانية، وتشتيتها خففا من حدة الصدمة التي كان من الممكن أن يسببها احتلال الجزيرة العربية.

وقد رأينا ما أثاره تصرف سعود من نفور في عائلته عندما خلف عبد العزيز. وقد شعر عمه عبدالله بالألم لإبعاده جميع أقاربه عن إدارة الشؤون العامة. فبدأ يحاول جمع غير الراضين ليشكل معهم حزباً يكون هو رئيسه. ولكن هذا الحزب الذي بدا قوياً لبعض الوقت، أزيل خلال مدة قصيرة. واختار سعود كبير أولاده عبد الله خلفاً له، وبذل هذا الرئيس الجديد جهوداً للمحافظة على التوازن في العائلة بعد أن جمعته المصلحة مع أبيه[1].

كان ذلك في عام ١٨٠٥ أي بعد الفترة التي وجد فيها باشا بغداد أن حملته ضد الوهابيين قد فشلت بشكل مشين بالرغم من تلك الاستعدادات الضخمة. وهذا الفشل نشر الخيبة في باشوية بغداد والذعر من سماع اسم سعود. وبدلاً من أن يغتنم سعود تلك الفرصة، ظل قرابة السنة ساكناً لا يقوم بأية محاولة على شواطئ الفرات. وكان هذا موضع الاستغراب، إذ بدأ الناس يعتقدون أن الوهابيين قد انقرضوا أو قاربوا الفناء. وادعى البعض أن سعوداً قد طرد من مكة والمدينة وهو مهدد في أواسط الجزيرة العربية، وقال البعض الآخر إن الأوبئة تفرغ اليمن من السكان. وأخيراً فإن لجوء شيخ شمر على رأس عشرين ألف رجل إلى بغداد وعرضه خدماته على الباشا[2]، أعطى الناس برهاناً جديداً على ضعف سعود وظهر وكأنه يؤكد لهم قرب نهايته.

ولعل الوهابيين أنفسهم كانوا أول من أطلق هذه الشائعات، إذ لم يكن يهمهم الانتصار بالقوة بل كانوا يحاولون دائماً مباغتة العدو. وكانوا يريدون اغتنام فرصة الاطمئنان التي كانت تعيشها بغداد للهجوم على الإمام علي. ولا بد للمطلع على تاريخهم أن يلاحظ أن الشائعات عن قرب انهيارهم كانت تسبق كل غارة من

غاراتهم. وكانت هذه الشائعات تنشر الاعتقاد بقلة بأسهم فتؤدي إلى الحد من الحيطة لدى أعدائهم. وهكذا كانوا يبددون يقظة العدو، وهي السبيل الأمين لرد غزواتهم.

وكان سعود مشغولاً في ذلك الوقت بالاحتياط لما يمكن أن يخلقه اقتراب عبد الله باشا من شغب في المدينة. لذلك أسند مهمة غزو الإمام علي إلى القائد الجديد، وتوجه عبدالله على رأس فرقة عديدة ووصل أسوار البلدة في نيسان عام ١٨٠٦ من دون أن يذاع خبر اقترابه منها.

وكان السكان آمنين، غير مستعدين للدفاع، مما جعل الوهابيين يترقبون نصراً قريباً وأسلاباً أكيدة.

تحيط بالإمام علي أسوار منيعة نظراً لأهمية الدفاع عنها بسبب احتوائها الضريح المقدس. ولدى اقتراب عبد الله من المدينة ليلاً، وجد أبوابها مغلقة وحراسها نياماً. وباشر الوهابيون تسلق الأسوار ونشر الرايات عليها، وعندما أراد أحد قوادهم إلقاء كلمة فيهم وقد ضمن المعركة، أذن بالسلب وأمر بالقتل. وأيقظت الهتافات التي سببها الخطاب حراس الإمام علي، فأطلقوا الإنذار. وتراكض السكان إلى السلاح لمواجهة الوهابيين. وكان الدافع إلى هذه المهمة السمعة التي نالها الوهابيون في مجزرة الإمام الحسين، بحيث فقد السكان الأمل في الخلاص، فأراد كل واحد منهم أن يقاتل وأن يموت على الأقل وهو يدافع عن نفسه.

والوهابيون لا يعرفون أي نظام في غزواتهم، فإذا أضفنا إلى ذلك ظلام الليل، أدركنا كيف عمت الفوضى بينهم خلال فترة قصيرة.

وفوجئ عبدالله بمقاومة لم تكن منتظرة، فأمر بالانسحاب وضرب الخيام على مسافة قريبة من المدينة.

وكان يقصد تجديد الهجوم في وضح النهار ولكن حيل دونه وذلك. إذ لم يكد ينبلج الصباح حتى رأى قوماً يقودهم شيخ من مشايخ ما بين النهرين، يهاجمون مضرب خيام الوهابيين، يساعدهم في ذلك مدفع المدينة. وخسر الوهابيون المعركة كلياً، فتركوا أكثر من خمسمائة قتيل في ساحة القتال. وأراد عبد الله محو آثار الهزيمة بالهجوم على السماوة. وكان يأمل مباغتة تلك المدينة بأن يسبق إليها نبأ انكساره ولكن السكان كانوا على علم به واضطر إلى محاصرة المدينة. ولما كان الحصار أضعف فنون الوهابيين الحربية، فقد كان حظ حصار السماوة مثل حظ حصار الإمام علي. لذلك قرر عبد الله الانسحاب، بعد بضع هجمات غير موفقة كلفته أكثر من ألف رجل قتلوا أمام المدينة.

وبالرغم من صده في جميع المواقع، فقد أراد أن يقوم بمحاولة أخيرة في ولاية علي باشا. وكلما حاول زيادة عدد أفراد جيشه، كلما زاد شعوره بالإهانة لتراجعه في كل مكان، خصوصاً أن أنباء الانتصارات التي حققها والده في المدينة كانت قد انتشرت في كل مكان، مما جعل انكسارات عبدالله مخجلة حقاً بالمقارنة مع ما توصل إليه سعود من انتصارات. لذلك رغب في المشاركة بهذه الانتصارات وقرر أن يهاجم الزبير قبل الانسحاب. وكانت هذه هي المرة الثالثة التي يهاجم فيها الوهابيون تلك المدينة. وكما في المرتين السابقتين كان عدم التوفيق نصيبهم.

وهكذا كانت نهاية حملة رافقتها الكوارث في جميع مراحلها،

فأعطت مثالاً جديداً عن السهولة التي كان هؤلاء يقهرون بها كلما خرجوا من صحرائهم حيث لا يمكن أن يهزموا. والواقع أن هذه الحالة كانت العائق الأكبر في سبيل تقدمهم. ولما كانت باشوية بغداد تقع على حدودهم الشمالية الغربية، وكانت هذه الباشوية هي الوحيدة في السلطنة العثمانية التي ظلت بمعزل عن النزاعات الداخلية وكانت تحكم من قبل إدارة نشيطة، فقد أمكنها جمع الجيوش والوقوف في وجه سعود بصلابة كبيرة. ولئن كان باشا بغداد مستقلاً عن الباب العالي، فإنه كان في مقاطعته سيداً قوياً. وكان الدفاع عن أراضيه يحتم عليه مساندة العثمانيين، فكان باستطاعته القيام بذلك أفضل مما كان يستطيع العثمانيون أنفسهم بكثير.

وقد يقودنا الحديث إلى استغراب ثقة الوهابيين بأنفسهم، وعدم اكتراثهم لما يلاقونه من معاكسات، والسهولة التي يستعدون بها للقيام بحملة ثانية إذا ما هزموا في حملة ما. ولكن هذه الصفات جميعها هي صفات العرب كما هي صفات الوهابيين. فهم معتادون على قطع مسافات شاسعة، لا يكاد خبر فرهم ينتشر حتى يكرون، وهم يعتمدون على هذه الطريقة كأفضل سبيل للفوز. فإذا لاقوا أية مقاومة في المعركة انسحبوا، واستعدوا لمعركة لاحقة يتدبرون فيها أمر تلك المقاومة. وهكذا فإن انسحابهم ليس سوى فاتحة معركة جديدة. وهم بذلك أعداء خطرون، لأنه من السهل جداً ردهم، ولكنه من الأصعب بكثير التغلب عليهم بصورة قاطعة.

وقد قدم انكسار عبدالله برهاناً جديداً على هذه الصفات المتأصلة لديهم. وتبين أن خسارات عبدالله لم تؤثر على سعود الذي باشر بإعداد خطط جديدة.

ولما كان علي باشا يحشد جيوشه على حدود إيران فقد ظن سيد الوهابيين أن الفرصة مناسبة لتجديد حملاته على البصرة، وهي التي كانت هدفه منذ زمن بعيد. وكانت أهميتها بالنسبة له كبيرة، بعد أن أصبح سيد الشاطئ الغربي للخليج الفارسي بأكمله، بينما كان القواسم، الذي خضعوا لسعود منذ مدة طويلة، أسياد سطح الخليج ذاته وقد غطوه بمراكبهم. ومن جهة أخرى فإن مواسم التمور التي كانت تفيض بجوار البصرة وعلى شواطئ نهر العرب، ستكون مورد رزق لا ينضب. ولم يستطع سعود تنفيذ مخططه في ذلك الوقت لأن الاستعدادات التي كان العثمانيون يقومون بها في دمشق استأثرت بكل عنايته.

الهوامش

(١) راجع الحاشية رقم (٢) الفصل الخامس.

(٢) كان هؤلاء من بني ظفير وقد لجأوا لباشا بغداد بعد أن كانوا وهابيين، ثم تركوا بغداد ولجأوا للصحراء وأرسلوا في طلب حماية سعود. ولكن هذا الأخير لم يقبل إلا بشروط قاسية (حاشية المؤلف).

الفصل الحادي عشر

دخول جدة وتوقف الحج إلى مكة

كان شرف قيادة القافلة إلى مكة في عام ١٨٠٥ لباشا دمشق عبد الله. وقد رأينا ما صادفه من عقبات في هذا السبيل حتى توصل إلى هدفه. فقد طرده الشعب من المدينة، واضطر لدفع الإتاوة في مكة، وهاجمه عرب الصحراء في طريق عودته بعد أن انهزموا من أمامه، فكان عليه إما أن يقاوم أو أن يستسلم في كل مرحلة من مراحل انتقاله. وفي غمار هذه المخاطر تمكن من العودة بنجاح بفضل شجاعته وحسن طالعه. وقد تبين أن نجاحاً مماثلاً في المستقبل قد يصبح من شبه المستحيل، خصوصاً وقد أعلن سعود أن قافلة عام ١٨٠٥ ستكون الأخيرة. فبعد أن أصبح حارس الأماكن المقدسة، أصر على أن تكون حراسة الحجاج من حق جيشه في المستقبل. وسنداً لصفته الإصلاحية، منع مرافقة الموسيقى لهم كما منع الزينة التي كانوا ينقلونها بمظاهرة حتى ضريح الرسول.

وكان وضع الباب العالي آنذاك حرجاً للغاية. فكانت الآستانة تعج بالمظاهرات بسبب انتصارات الوهابيين، التي أثارت هياجاً عاماً. لذلك كان في مصلحة الدولة التضحية بكل شيء في سبيل التغلب عليهم، أو على الأقل تخفيف آثار انتصاراتهم.

وفي دولة مستبدة، حيث يعم الجهل، وتبقى المواصلات صعبة بسبب المساحات الشاسعة وخمول الدولة، كان من السهل التستر على احتلال مكة والمدينة. ولكنه لم يكن بالإمكان إخفاء مصير القافلة التي كانت تتجه إليها جميع الأنظار لما فيها من مصلحة تجارية بالإضافة إلى المصلحة الدينية. وجرت المحاولات للاتفاق مع الوهابيين سراً بالتراجع عن بعض النقاط، ثمناً لدخول الأماكن المقدسة، ولكن من دون جدوى. فقد عقد سعود العزم على القيام بحراسة القافلة بنفسه، وأن لا يسمح لها بدخول مكة إلا بعد قبول هذا الشرط. ولم يكن باستطاعة السيد الكبير التنازل عن هذا الحق لأن تراجعه كان يمكن أن يعتبر اعترافاً ضمنياً منه بأن سعود أضحى أمير المؤمنين. وهذا يعني الاستغناء عن أول ألقابه وترك أكبر دعامة لسلطته.

لذلك كان لا بد من محاربة سعود. وقد بدأت الاستعدادات الكبيرة منذ مطلع عام ١٨٠٦ وصدرت الأوامر لتجميع جيش بالقرب من دمشق، وأرسلت الأسلحة والذخيرة والعتاد من سورية ومن الولايات المجاورة لها. وأسندت قيادة الجيش إلى يوسف باشا. وكان عليه أن يحمي سير الحجاج وأن يتقدم نحو المدينة، ومن ثم يهاجم سعوداً في الدرعية، إذا وجد بعد الاستكشاف أن بإمكانه القيام بذلك بنجاح. ويوسف باشا هذا، هو نفس الباشا الذي كان سابقاً صدراً أعظم وعقد مع الفرنسيين في مصر معاهدة العريش.

واسمه معروف في أوروبا خصوصاً بعد انكساره في هليوبوليس، حيث أفنى الجنرال كليبر جيشه بكامله.

وكانت جدة التي هاجمها الوهابيون في عام ١٨٠٣ من دون جدوى، لا تزال خاضعة للسيد الكبير. وهذه المدينة الواقعة على شاطئ البحر الأحمر تصدّر القهوة العربية [البن] إلى مصر وتستورد الحبوب بدلاً منها. فهي لذلك تتمتع بميزة تموين القافلة عند خروجها للصحراء. ويتيح لها عدد سكانها تجهيز العديد من الرجال الذين يمكن حشدهم من دون عناء في وسط المعركة. وتعتبر جدة بلداً محصناً حيث إنها محاطة بأسوار في منطقة تجهل فن تحصين المواقع كما تجهل فن مهاجمتها. لذلك كانت توفر ليوسف باشا موقعاً يمكن الانسحاب إليه لدى أول تقصير من قبله.

لم يهمل الباب العالي أي وسيلة لإحياء سلطته، إلا أن سلطة هذا الحكم الفاسد التي تنعدم أحياناً حتى عند أبواب الآستانة نفسها، تكون بالتالي أكثر ضعفاً في أقاصي البلاد العربية، لذلك استمرت المحاولات من دون نتيجة قرابة عامين، انقضيا في التفتيش، ومحاولة اختيار رجل يصلح لحكم جدة. وقد انقضى عام ونصف العام على تعيين أبي المرق باشا لهذا المنصب، وهو ما زال في يافا، يؤجل رحيله من يوم إلى آخر بحجة جمع المال والرجال. وكان هذا الرجل صنيعة يوسف باشا، واشتهر في كل آسيا الصغرى بظلمه وبشحه. وكان قد سمي على التوالي والياً ليافا وقارص، فأفقر المدينتين بأقل من ستة أشهر. وكان سوء أفعاله ظاهراً لدرجة أدت إلى عزله وهربه. ولكن حماية يوسف باشا أعادت له مكانته وأوصلته إلى حاكمية جدة. وقد ولد أبو المرق في غزة بين البدو فكان يعرف العرب ويستطيع التطبع بطباعهم. ولعله كان يستطيع

ملء المركز الذي أعطي له لولا كان إسرافه يضاهي جشعه، بحيث كان يجد نفسه من دون مورد بصورة شبه دائمة، يضاف إلى ذلك أنه كان كغيره من العرب، عدواً للأتراك، وبالتالي عدواً لما كلف بحمايته من مصالح.

تبرّم الباب العالي أخيراً بمماطلة يوسف فقرر أن يعين بديلاً له. ولهذه الغاية وقع اختياره على عثمان باشا. ومن غرائب التدابير أن الباب العالي عين عثمان باشا على حلب، وفي ذلك ما يكفي للدلالة على حالة الانحلال التي وصل إليها الأتراك في هذا الزمان[١].

وأعطي الأمر بتعيين وكيل لعثمان باشا في حلب وبالسير نحو جدة مع ما يستطيع جمعه من جنود في ولايته. ولمواجهة نفقات الحملة، أفرزت له مائة كيس من رسوم جمارك حلب وتسعمائة كيس أخرى من رسوم جمارك دمشق. واجتاز عثمان باشا سورية فحل في دمشق في منتصف عام ١٨٠٦. ولكن ضعف الواردات الجمركية كان سبباً في إطالة إقامته في تلك المدينة.

وكان من المفروض أن يعمل الجيش في دمشق بالتوافق مع جيش عثمان باشا. ولكي يضمن نجاح العمليات كان من الضروري كذلك انطلاق باشا بغداد في نفس الوقت، بحيث يمكن التغلب عل سعود بمهاجمته دفعة واحدة على ثلاث جبهات[٢]. ولكن علي باشا كان مشغولاً بأمور أخرى.

فإلى الشمال من بغداد، على حدود تركيا الشرقية وقرب حدود إيران تقع بلاد الكردستان، وهي منطقة جبلية وعرة. ونظراً لصعوبة دخولها ولوقوعها بين الدولتين الكبيرتين في الشرق، فقد ظلت طوال

الوقت مستقلة عن كلتا الدولتين. وتقسم كردستان إلى ثلاث مقاطعات تحت حكم باشا بغداد.

وحكام هذه المقاطعات ليسوا بالواقع ولاة بل متسلمين وإن كانوا بشوات، إذ تعتبر كل مقاطعة سنجقاً فقط. وكان عبد الرحمن باشا قد لجأ إلى داربند بعد أن قتل محمداً، باشا السليمانية، وهي أكبر مقاطعة فيها. فهاجمه علي باشا في عام ١٨٠٥ وهزمه، فاضطر إلى اللجوء إلى سنة، بحماية خان تلك المدينة. وطلب علي باشا أن يسلم إليه، فلما رفض ملك إيران ذلك، حشد علي باشا الجيوش على حدود تلك الدولة.

أصبحت الحرب وشيكة بين إيران وباشا بغداد. وصدرت الأوامر إلى كل خان على الحدود الغربية بحمل السلاح ومقاومة علي باشا. وكان من المحتمل أن يتفوق الفرس سريعاً في أي ظرف آخر لعدم تعادل القوتين، ولكن وضعهم في تلك الفترة كان سيئاً للغاية. فقد كان الروس يهاجمونهم في أذربيجان حيث كانت خساراتهم تتكرر يوماً بعد يوم. فكانت الحاجة تدعو لبذل التضحيات لكي لا يستجلبوا لأنفسهم حرباً جديدة في الجنوب. لذلك قام علماء أصفهان بمناشدة فتح علي شاه بأن يترك عبد الرحمن باشا لسوء طالعه. وبينوا له كيف أن الروس يهددونهم في الشمال بينما يهددهم الوهابيون في الجنوب، وأنه من الأحرى بهم أن يتحدوا مع علي باشا الذي تجمعهم وإياه عداوة الوهابيين، من أن يجعلوا منه عدواً جديداً. إذ إنهم بهذه الخطوة يتركون ضريحي الإمام الحسين والإمام علي من دون حماية، بدفعهم من يحميهما إلى الحرب. وقد أدت هذه النصائح إلى النتيجة المطلوبة، فأمر فتح علي شاه بالقبض على عبد الرحمن باشا، وعين الحاج حسين خان حاكماً على

أصفهان، آملاً بأن يتوصل إلى الاتفاق على بعض الترتيبات للمصالحة، نظراً للصداقة التي كانت تربط الحاج حسين خان مع علي باشا.

وأشير على الحاج حسين خان بإرضاء علي باشا بأن يعده بالسهر على تصرفات عدوه وبالحيلولة دونه والقيام بأي نشاط في المستقبل. وكان هذا الأسلوب في المصالحة هو الوحيد الممكن اتباعه حيث إن حق اللجوء في الشرق لا يمكن نقضه، ومن العار تسليم أي شخص طلب الحماية وأعطيت له.

غير أن عروض الوساطة هذه لم تؤثر في علي باشا، بعد أن كان قد ترك بغداد وحشد جميع جيوشه على حدود إيران، وجعل مركزه في خانقين حيث وافاه عاصم خان فلي، بعد مدة قصيرة، ومعه أحد عشر ألف راجل وستة آلاف حصان. فاستقبله علي باشا بالترحاب وخلع عليه رداء ثميناً. ولم تكن مصالح علي باشا هي وحدها التي حركت عاصم خان، فقد كان هذا الخان حاكم كرمنشاه، لمدة طويلة وقد فقد ولده الذي قتل بأمر من ملك فارس، ولنقمته على الملك اغتنم أول مناسبة لكي يعلن ثورته، ويضم مصلحته إلى مصلحة باشا بغداد.

هكذا كان إذن وضع علي باشا، فقد كان، لانشغاله في الاستعداد للحرب، بعيداً عن التفكير في إعداد حملة جديدة ضد سعود، خصوصاً بعد ما لاقاه من فشل في حملته الأخيرة.

فالعثمانيون كانوا إذن يستنفدون قواهم في نزاعات داخلية، بدلاً من حشدها ضد عدوهم المشترك. وكان سعود على علم بهذه النزاعات

بخبرته وتجاربه السابقة، ولكنه كان على علم أيضاً بما يبذله السيد الكبير من جهود للاحتفاظ بحماية القافلة. وسواء خشي الاستعدادات التي كانت تتم آنذاك في دمشق، أو أنه أراد التحرش بالباب العالي لإفهامه عدم جدوى تلك الاستعدادات، فقد رأى أن ينشر بلاغاً في تشرين الثاني من عام ١٨٠٦، يخفف من حدة بلاغاته السابقة. وهكذا توصل إلى تهدئة ثورة عدو خائر العزيمة، ما كان ليحركه سوى الشعور بخطر داهم. وهذه سياسة سارية في الشرق، فهم دائماً يحاولون خداع عدوهم للتغلب عليه. فالوعود، وتعابير الصداقة، وكل وسائل الحيلة، صالحة عندهم للوصول إلى غايتهم.

ولا شك في أن هذا هو السبب الذي أملى بلاغ سعود. وقد بدأ بمنع المسلمين من دخول المدينة وبدعوتهم للتحول إلى مكة، واعداً إياهم بالأمن والحماية في الطريق، مؤكداً أنه اتخذ لهذه الغاية أشد التدابير مبيناً عدم فائدة الحماية التي كان يوفرها السيد الكبير بحيث لم يعد من ضرورة لأمير الحج ولا للجيش المرافق له.

ولكنه وعد بأن يسمح لأمير الحج بمرافقة القافلة كأي حاج آخر. واعتقد باشا دمشق أنه يستطيع مرافقة القافلة بهذه الصفة، بحيث يبقى حاجاً عادياً بنظر سعود وأمير الحاج بنظر الباب العالي، ويمكنه بهذه الطريقة التوفيق بين مصالح الباب ورغبة سعود.

وكان الحجاج أثناء ذلك يتجمعون في دمشق قادمين من عينتاب وحلب وغيرهما من بلاد آسيا الصغرى. وانضم إليهم عدد من الفرس بينهم ميرزا محمد خان وهو رجل ذو مركز مرموق. وكانت دمشق آنذاك بين مخالب الاضطرابات الداخلية، إذ ثار الإنكشارية ضد عبدالله باشا وكانوا منقسمين إلى حزبين اقتسما المدينة.

وأتى الحريق على حي من المدينة أثناء القتال الذي نشب بين الحزبين وأدى إلى وفاة أحد الرئيسين. واحتل الحزب المنتصر القلعة، ورفض آغا الإنكشارية إعادتها إلى عبدالله باشا متهماً إياه بالتحيز للوهابيين.

أفقد هذا الانشقاق العون الذي كان يوسف باشا يأمل أن يلقاه في دمشق. وكان الانقسام نفسه يسود في حلب حيث احتل الإنكشارية المدينة، وطردوا منها أحمد بن إبراهيم باشا. وذهبت محاولة إخضاعها سدى، بالرغم من جمع الجيوش ومحاصرتها. وقد تبرم الباب العالي بطول مدة الحصار وأمر بعزله من باشوية حلب. وأعاد هذا التدبير إلى الإنكشارية سطوتهم واستقلالهم كما في السابق. ولما كانوا لا يحترمون فرمانات السيد الكبير فقد ظلت أوامره بالتسلح لحماية القافلة من دون نتيجة.

هكذا وجد يوسف باشا أن الوسائل التي فكر في الاعتماد عليها تتلاشى الواحدة تلو الأخرى. ووصلت في ذلك الوقت أخبار سقوط جدة إلى دمشق. وكانت هذه المدينة قد قاومت وحدها وسط بلاد يحتلها الوهابيون من أقصاها إلى أقصاها. ولكنها لم تستطع الاستمرار في الصمود بعد أن منع عنها الباب العالي المساعدات التي كان وعد بها.

وكان عثمان باشا لا يزال في دمشق عندما بلغه النبأ فقرر البقاء في تلك المدينة بانتظار أوامر جديدة. وصدرت إليه الأوامر بالعودة إلى حلب وكأن الباب العالي قد استغنى عن حكم جدة.

وفي غمار هذه المعاكسات، حل وقت سفر القافلة. ولم يكن لدى يوسف باشا سوى بضعة رجال، بدلاً من الجيش الذي كان يترقب

أن يجمعه. ولعله اعتمد على الترتيب الذي أعلن عنه سعود في بلاغه، أو أنه فضل التعرض للموت، على أن يخالف أوامر السيد الكبير. ومهما كان عذره الحقيقي، فقد خرج من دمشق مع الحجاج من دون أن تؤمن له أي حراسة. وكان معه عبد الله، باشا دمشق. وكان هذا الأخير مطمئناً إلى أنه لا يعتبر أمير الحج إلا في نظر العثمانيين بينما يعتبره الوهابيون حاجاً عادياً. وقد اتخذ احتياطات أخرى للتستر على المقصد الحقيقي لمرافقيه وللزينة التي كان على القافلة أن تحملها. واطمأن يوسف باشا وعبدالله باشا إلى أن سعوداً سيغض النظر، طمعاً بواردات الحج، وكان أملهما معلقاً على بلاغه الأخير.

لكن سرعان ما خاب هذا الأمل. فبعد أن اجتاز الحجاج أكثر من نصف الصحراء التي تفصل بين دمشق والمدينة من دون أي عائق، بلغهم أن قاضي مكة قد اعتقل. وقد تأكد هذا النبأ بعد قليل إذ وصل رسول من سعود يحمل رسالة إلى عبدالله باشا. وقد لاحظ سعود في تلك الرسالة أنه سبق أن بيّن بشكل واضح رأيه بشأن الحج إلى مكة، وأعلن أنه بالرغم من هذه الأوامر الواضحة جداً التي صدرت عنه، فقد اتبع الحجاج أساليبهم المعهودة من دون التقيد بتلك الأوامر. وهو لذلك يترك للقافلة مجال الانسحاب وإلا اضطر إلى منعها بالقوة إذا تقدمت من مكانها الحالي.

تدارس عبدالله باشا ويوسف باشا هذه الرسالة، واعتقدا أنها ربما كانت أسلوباً جديداً لطلب الإتاوة، وهما قد تعودا، كما لا بد أن يعتاد المرء في الشرق، مشاهدة المال يزيل كل العقبات. لذلك عرضا على سعود دفع خمسمائة كيس (٢٥٠،٠٠٠ قرش) وتابعا السير بالقافلة نحو المدينة وهما لا يشكان بنجاح هذا العرض.

لكنهما لدى وصولهما إلى المدينة وجدا أن الأوامر قد أعطيت بإغلاق أبوابها في وجه القافلة. وعبثاً حاولا إغراء سعود بعرض ألفي كيس عليه، ولكنه لم يتزعزع. فلما وجدت القافلة نفسها محاطة بالوهابيين من كل صوب وهي مهددة في كل لحظة، قفلت راجعة واستغنت عن أمل دخول المدينة.

وظهر بهذه المناسبة بغض سكان المدينة لغير الوهابيين، وما وصلوا إليه من إخلاص لعقيدتهم الجديدة. فقد خرجت منهم جماهير غفيرة لمنع دخول الحجاج. وتحمل أفراد القافلة سوء المعاملة والإهانة من كل صوب. وكانت النساء أنفسهن يلحقن بهم بالحجارة ويصرخن بهم: ابعدوا عن الأرض المقدسة يا مشركين.

كان الخطر يزداد على القافلة في كل لحظة، كما يزداد عدد الجماعات التي كانت تحيط بها على أمل المشاركة في السلب. لذلك قرر عبدالله باشا الانسحاب. وتم ذلك بفوضى متناهية، واستطاع الحجاج الذين لديهم مطايا جيدة أن يلحقوا بأمير الحج الذي قفل عائداً بسرعة إلى دمشق. وأما الباقون فقد تخلفوا في المؤخرة بدون زاد ولا ماء ولا حراسة، فمات أكثرهم. وظل البعض منهم تائهاً في الصحراء أياماً وشهوراً، فكانوا يصلون إلى دمشق متفرقين، وعلى فترات طويلة، مما أطال مدة البؤس والشقاء الذي أصابهم.

سبقت أخبارُ كارثة القافلة عبدالله باشا إلى دمشق. فلدى وصوله وجد المدينة غارقة في الاضطراب. وكانت أبوابها مغلقة، وأسوارها تحصن وقد قام السكان يتخذون الاحتياطات اللازمة للدفاع وقد ظنوا أن لا بد منه. ولم يكن لديهم شك بأن الوهابيين سيغتنمون

فرصة الفوضى التي خلفها تحطيم القافلة وطرد يوسف باشا، للاستيلاء على دمشق. ولو عرف سعود أن يغتنم تلك الفرصة المواتية لاستطاع ولا شك دخول دمشق من دون مقاومة. ولكنه بقي في الصحراء وقد اكتفى بالتفوق الذي اكتسبه، وأهمل أكبر فرصة لتصديع سورية، سنحت له حتى ذلك الوقت.

وكان أول ما فعله يوسف باشا، هو إرسال تاتار إلى الآستانة لإعلان ما صادفه من سوء. وكان الباب العالي في ذلك الوقت مشغولاً باضطرابات الإنكشارية في الداخل، ومهدداً بحروب خارجية في وقت واحد. وهذه المصالح الأكثر أهمية، لم تكن لتسمح له بالاهتمام بالجزيرة العربية.

ولم تهمه كارثة القافلة بقدر ما كانت تهمه النتائج التي كان يمكن أن تحصل من جراء انتشار أنبائها، لذلك اتخذ الاحتياطات لإبقائها في طي الكتمان. وصدرت الأوامر إلى يوسف باشا بالبقاء في دمشق إلى أن يحين الموعد الاعتيادي لعودة القافلة إلى الآستانة. وهكذا لم ينتشر خبر تفوق سعود إلا بعد مدة طويلة، وخففت تلك الاحتياطات من مساوئ انتصاره.

وضع الوهابيين والمقاطعات المجاورة في عام ١٨٠٧

أكد احتلال جدة وكارثة الحجاج في المدينة درجة السلطة التي بلغها سعود داخل الجزيرة العربية. إنما ظهر كذلك أن هذه الجزيرة التي كانت مسرح نشاطه، كانت حدود سلطته في الوقت ذاته. فالصحاري الشاسعة التي تفصلها عن بقية آسيا، تفصلها كذلك عن السكان الذين يختلفون عن العرب جوهرياً في الطباع والعادات. وقد أجمع العرب داخل الجزيرة على ما كان يبشر به الوهابيون من

الأخلاق، لتقارب طباع أكثرية القبائل. ولكن اختلاف هذه الطباع عبر الصحارى، كان حاجزاً في طريق تقدمهم.

ولو أن تعاليم المصلح كانت تهدف فقط إلى جمع شمل القبائل العربية، تحت قيادة موحدة، لما تخطت هذه الثورة حدود الجزيرة، ما بين الخليج والبحر الأحمر اللذين يفصلانها عن بقية آسيا. ولكن الوهابيين أرادوا أن يصبحوا فاتحين، حالما وجدوا أنفسهم وقد انصهروا في أمة واحدة ـ وهذا ما أمكن ملاحظته في الفصول السابقة. أما وقد وصلنا إلى الفترة التي يتصل فيها تاريخ هؤلاء العرب بتاريخ ما يحيط بهم من ولايات في آسيا وأفريقيا، فمن الضروري إلقاء نظرة عابرة على الوضع الذي كانت فيه تلك الولايات آنذاك.

فهذا الجزء من العالم الذي يدعى آسيا والذي يظهر أنه كان أول بقعة عرفها الإنسان، أصبحت اليوم البقعة التي استهلكها الإنسان واستهلكتها الزراعة قبل أي منطقة أخرى من العالم. ففي جنوب الأناضول، وعبر جبال طوروس، لا تشاهد سوى الأراضي الفقيرة التي تغطيها رمال الصحراء في أغلب أجزائها. ولا يرى الناظر إلى هذه المنطقة إلا السهول المترامية الأطراف حيث لا ماء ولا نبات أو ثروات طبيعية. فقد اختفى منها الحيوان واختفت الأشجار والمساكن ولم يبق فيها سوى صور الخراب والفناء.

الفقر في الأرض يمتد إلى أغلبية أجزاء هذه البقعة من العالم ويغطي ما يقارب العشرين درجة من العرض الجغرافي، من حدود الهند وفارس في الشرق حتى البحر الأبيض المتوسط وصحارى أفريقيا في الغرب. ويبدو أنه لم يكن لهذه البلاد أي هدف في

الخليقة، وكأن وجودها كان غلطة. فهي لا تتمتع بأي حقوق إلا في المناطق التي تتقاطعها الجبال المرتفعة حيث تسيل الأنهار وتفرد ثرواتها التي تبدو عندها أكثر بريقاً بالمقارنة مع القفار التي تحيط بها.

ويمكن اعتبار النيل والفرات وجبال اليمن وسورية، المناطق الرئيسية التي يتجمع عندها السكان في هذه البقعة، وتنتشر فيها الزراعة. وهذه المناطق المزروعة، قد انتزعت انتزاعاً من الصحراء المحيطة بها، والتي تفصل كذلك بين مختلف الواحات الكبرى في أفريقيا. فاليمن في الجنوب منطقة جبلية قريبة من المناطق الاستوائية، ومصر في الغرب بلد خصب له مقياس واحد هو النيل ويتبعه في جميع تعاريجه. أما سورية فتقع في أقصى الشمال وقد شدتهما الصحراء إلى أقدام جبل لبنان حيث تساهم قممه البيضاء في بعث الخصب والحياة. وأخيراً يحيط دجلة والفرات ببلاد ما بين النهرين في الشرق، ويجتمع النهران في نهر واحد يصب في الخليج الفارسي، وينشر الخصب حتى شواطئ الخليج.

هذه هي المناطق الآهلة في تلك الرقعة الواسعة من الأرض المتشابهة بتقارب المناخ، وتأثير درجة الحرارة. وقد كانت أول ما احتله العرب، وإليها اتجهت أول محاولات الوهابيين.

وقد جعل تفكك الحكم العثماني كل واحدة من هذه الولايات حكومة مستقلة بذاتها. فمنذ خروج الفرنسيين من مصر عام ١٨٠١ احتلها البريطانيون في عام ١٨٠٣ ثم أعادوها إلى العثمانيين في عام ١٨٠٧، ثم عادوا فهاجموها من دون نجاح. وكان الباشا، حاكم مصر ونائب السلطان فيها قد وفق في رد هذا العدوان، ولكنه لم

يوفق في وضع حد لمشاكل جيشه. وكان أفراد هذا الجيش وعلى الأخص الألبان منهم، معروفين بقلة انضباطهم وتمردهم الدائم. فكانت القاهرة معرضة للنهب يومياً، وقد أصبحت مسرحاً للتشفي من قبلهم. واضطر الباشا لأن يلجأ إلى القلعة في تشرين الثاني من سنة ١٨٠٧، ولم يستعد سلطته في المدينة الا بعد أن فرقهم وأبعدهم عنه بمختلف الأساليب[٣].

وهكذا وجد نفسه مضطراً لإضعاف جيشه لكي يحتفظ بسلطته. ولكن المماليك وهم أسياد الوجه القبلي منذ زمن بعيد، أصبحوا أكثر قوة بتدبيره هذا. وقد وجد نفسه مضطراً لأن يترك لهم الصعيد ومعه أغنى مقاطعات مصر. واغتنم الكثير منهم تلك المناسبة للاستيطان في الجيزة وضواحي القاهرة.

وكان من بين هؤلاء شاهين بك الألفي وإبراهيم بك. وكان يبدو أن الصلح الذي عقدوه كان صلحاً مؤقتاً وأنهم لم يهملوا أية وسيلة لاستعادة السلطة وكأن اغتصابهم لها واستغلالها لعدة قرون قد جعلاها من حقهم.

هكذا كان وضع مصر إذن. أما وضع سورية فقد كان أكثر حساسية، فهذه الولاية وقد قسمها العثمانيون إلى ثلاث باشويات رئيسية، كانت جميعها بين براثن خلاف داخلي. ففي القدس كانت الإتاوة التي فرضها سليمان باشا قد نشرت الفقر حتى وصل أديرة الكاثوليك التي أوشك رجال الدين الأجانب على تركها. وكانت كنيسة القيامة قد أحرقت فأصبح كل من الأرمن والأورثوذوكس والكاثوليك يتنازعون على أنقاضها. وفي حلب كان الإنكشارية يقبلون أو يرفضون السلطات المعينة من قبل الباب

العالي، حسب أهوائهم، وعبثاً حاول إبراهيم باشا استعادة السلطة في تلك المدينة، التي سبق أن كانت لا تخالف له أمراً، إلى أن مل أخيراً من سلطة ليس له منها سوى الاسم، وتركها من دون أسف. ولم يظهر سليمان باشا مهارة أكبر، فظلت المدينة من دون حاكم، يتنازع فيها السلطة ستة أو سبعة أغوات أقوياء.

وأصبح يوسف باشا حاكم دمشق، وكان يتوقع أن يستعيد سلطته، ولكن هذه السلطة ظلت محصورة ضمن أسوار المدينة ولم تتجاوزها. إذ كان بربر حاكم طرابلس يرفض الطاعة، كما ثار النصيرية. وكان كل شيء ينذر بأن القتال بين يوسف باشا وهؤلاء بات قريباً.

ولم تنج جبال لبنان من هذه الفوضى التي جعلت القتال والخلاف يعم جميع المناطق. ففيها اقتلع الأمير بشير، أمير الدروز، أعين أولاد الأمير يوسف الثلاثة، وقتل وزيره المارونيين في دير القمر وفي جبيل في ٢٣ آذار عام ١٨٠٧[٤].

والفوضى التي بلغت أقصاها في المدن، كانت عارمة كذلك على أبواب تلك المدن. فالعرب والكرد والتركمان يهاجمون مداخلها ويعيثون فساداً على طرقاتها. وكان القتال على أشده بين مختلف هذه الفئات بحيث كان منظرهم يزيد في مشاهد الخراب العام.

وكان علي باشا يحشد جميع قواه في بغداد لمواجهة إيران. وقد رأينا كيف أن هذا الحاكم توجه بجيشه نحو حدود تلك المملكة. وكان قد اجتاز الطوق، وأعد هجوماً ظن أن التوفيق سيكون حليفه. وكان علي باشا قد عزم على إقحام الباب العالي في النزاع، حتى

أن الإشاعات انتشرت بأن باشوات فان وقارص وأرضروم وبيازيد ومقاطعات أرمينيا قد تلقوا الأمر بجمع الجيوش والانضمام إليه. ولم يصدر الباب العالي هذه الأوامر، بل رأى التوسط بين إيران وعلي باشا، وطلب إلى هذا الأخير أن يعود إلى بغداد.

امتثل علي باشا لإرادة السيد الكبير، وخيل له أن الفرس لن يعودوا لمساندة عبد الرحمن باشا. ولكنه علم أثناء انسحابه أن هذا الأخير قد وصل حدود كردستان وأصبح يهدد السليمانية. فأرسل سليمان بك على رأس تسعة آلاف رجل لمساعدة المدينة.

لم يكتف سليمان بك بتنفيذ الأوامر وفك الحصار عن السليمانية، بل باشر بمطاردة عبد الرحمن باشا، ولم يخش التوغل ضمن حدود البلاد الفارسية لهذه الغاية، ولكن بالرغم من تفوق جيشه عدداً على جيش عبد الرحمن، فإن الإنهاك من السير الطويل، وحرمانه من مدفعيته التي لم تستطع اللحاق به، وأخيراً الفوضى التي وصل إليها قبيل التقائه بالعدو، كل هذا جعله في حالة تعيسة. فلم يستطع الصمود في وجه من كان يقصد ليهاجم. وتبعثر الجيش بكامله، أما هو فقد اقتيد أسيراً إلى طهران ولم يخل سبيله ليعود إلى بغداد إلا بعد عدة أشهر. وأصاب الغرور عبد الرحمن باشا لهذا التفوق فأعد العدة للسير إلى الكويسنجق.

أما في البصرة فكان الخوف يسيطر على الشعب باستمرار من قرب هجوم الوهابيين. وقد توجه علي باشا إلى الحلة مباشرة بعد عودته في كانون الأول عام ١٨٠٧ إلى بغداد، استعداداً للوقوف في وجه غارات هؤلاء العرب ولحماية ضريحي الإمام علي والإمام الحسين. وكان الخوف من غاراتهم قد أعطى المقيم البريطاني حجة لطلب بناء

قلعة لحماية نفسه. وكان الطلب معقولاً، خصوصاً بعد أن أصبح البريطانيون، أصدقاء الوهابيين سابقاً، أعداء لهم في الخليج، حيث لم يفتر القواسم عن مهاجمة السفن البريطانية. لاقى هذا الطلب في البداية معارضة شديدة من متسلم البصرة ومن باشا بغداد. ثم أزيلت كافة الاعتراضات أخيراً، ونقلت المواد اللازمة كما نقل العمال من بومباي وبنيت القلعة في كردلان على شاطئ النهر الشرقي.

وإن كان علي باشا قد نجح بالاحتفاظ بسلطته كاملة في باشويته، وهو أمر لم يحققه باشوات الولايات الأخرى في السلطنة العثمانية، فإن ذلك لم يجده نفعاً إذ قام الانقلاب الذي أودى به من وسط قصره.

لا بأس من إعطاء بعض التفاصيل عن هذا الحادث الذي يعكس طباع الشرقيين، ويفيد ذكره بالنسبة لتاريخ الوهابيين، حيث كانت محاولاتهم مركزة على باشوية بغداد بصورة خاصة.

ولد علي باشا في بسارابيا وكان عبداً لسليمان، باشا بغداد، ثم أصبح صهراً له، ثم خلفه في عام ١٨٠٢. وغرائب التحولات والانقلابات هذه لم تعد تدهش الشرقيين، الذين طالما لاحظوا أن الرق أول خطوة للوصول إلى المناصب. ففي زوايا قصورهم وبين عبيدهم يفتش الباشوات والبكوات عن صنائعهم. ورضاهم يعطي هؤلاء الثروة والسلطة، فيصبحون قادرين على الحلول مكان سيدهم إما بشراء ذلك من الباب العالي أو بإزالة خصومهم من طريقهم.

وأقبل ذات يوم مدد بك لمواجهة علي باشا، ومدد بك هذا كان ابن أحد أعيان باطوم، وقد علم بما توصل إليه علي باشا من مكانة

بعد أن كان عبداً في قصر أبيه. واستقبله علي باشا بكل ترحاب، ومع ذلك لم يرق له منصب تشامهور أغاسي الذي أعطاه إياه. ورأى بعين الحسد مناصب أعلى تعطى لمن كان يعتقد أنهم أقل منه مقدرة. وهكذا اجتمع ببعض الموالي المهملين في زوايا القصر وتآمر معهم على حياة علي باشا. فلما تم إعداد الخطة، عرضوها على ناصيف آغا، الذي قبل مؤازرتهم بعد أن وعدوه بإعطائه مركز باشا.

وكان ناصيف آغا سابقاً مساعد الكيخيا، وهو من مواليد أرمينيا، وكان كذلك صهر سليمان باشا أي عديل علي باشا. ولدى وفاة سليمان باشا الكبير أراد تولي منصبه، ولكن علي باشا سبقه إليه. وقد غفر له ناصيف آغا ذلك وبات يعيش في القصر كأي شخص عادي بعد أن تصالح مع عديله.

وفي ١٨ آب عام ١٨٠٧ كان قد مضى ثلاثة أشهر على اتفاق هذا الآغا مع المتآمرين. وقتل علي باشا في ذلك اليوم في القاعة الكبرى في قصره، أثناء أدائه صلاة الصبح وسط جمهور من عبيده. وقتل بالقرب منه المهردار. وتوجه المتآمرون بعد ذلك مع مدد بك لمنزل ناصيف آغا واتخذوا الترتيبات لتأمين ولاية بغداد له.

وفي هذا الوقت، هرب من القصر نائب الحاكم العسكري مع سليمان باشا صهر القتيل. فاجتمعا إلى القاضي والمفتي والنائب والعلماء وكبار رجال علي باشا. واستولى سليمان باشا على السراي الكبير والقلعة، وأمّن حراستهما بواسطة جنود يطمئن لهم.

علم سليمان باشا أن المتآمرين قد لجأوا إلى منزل ناصيف آغا، فطلب منه تسليمهم، واعداً إياه بتركه حراً إذا ما امتثل. ورفض

ناصيف آغا، وانتقل مع قوة كبيرة إلى دار ابن عمه أسعد بك ابن المرحوم سليمان باشا الكبير، آملاً أن يضمه إلى حزبه. ولكن هذا الأخير رفض الانضمام إلى قاتل علي، بالرغم من صغر سنه إذ لم يتجاوز السبعة عشر عاماً. وعندها حاول ناصيف آغا الاستيلاء على القلعة، ولكن قراره جاء متأخراً. وكان يعتمد على تأييد الميدانلية المعروفين بشجاعتهم واستقلالهم، وقد أطلق عليهم هذا الاسم نسبة إلى «الميدان» حيث كانوا يجتمعون عادة. ولكن هؤلاء رفضوا الانضمام إلى رؤوس المؤامرة التي بدأت بنجاح ولم تجد وسيلة للاحتفاظ بنجاحها. ولما رأى ناصيف آغا نفسه منبوذاً في كل مكان، جمع حوله بعض الأشقياء الذين انضموا إليه طمعاً في النهب، وخرج معهم إلى أسواق بغدَاد. ووجد أخيراً ملجأ في منزل نقيب الأشراف ناظر مسجد الشيخ عبد القادر الجيلاني.

أنفق ناصيف آغا المال بسخاء في ذلك الحي فربح جميع سكانه إلى جانب قضيته، ووعدوا بالدفاع عنه حتى الموت. ولم يفلح سليمان لا بالتهديد ولا بالوعود الخلابة في إقناعهم بالعودة إلى الولاء. وحاول كذلك عبثاً إرسال راية بيضاء إلى ناصيف آغا إشارة إلى أنه سيصفح عنه إذا ما هدأ السكان وسلم ناصيف آغا نفسه. وفشلت جميع الأساليب، فكان لا بد من استعمال القوة.

لذلك أرسل ما بين أربعمائة وخمسمائة جندي لمهاجمة الحي المتمرد. وتراجع الجنود في البداية ولكنهم أعادوا الكرة بمساعدة المدفعية، تحت قيادة ضابط مدفعية فرنسي[٥]. فاستطاعوا رد المتمردين وتفريقهم. وبقي ناصيف آغا وحيداً على رأس خمسين رجلاً فدافع ببسالة. وتحصن في أحد المنازل وقاوم المهاجمين لمدة من الزمن، إلى أن صوبت المدافع نحو المنزل ولم تترك له أي أمل

في المقاومة فقرر الهرب.

وأعاد هربه الهدوء إلى بغداد، حيث وضعت جائزة على رأسه. وكان قد اجتاز النهر في طريقه إلى الحلة، عندما أدركه بعض مطارديه من جنود سليمان باشا وقتلوه. وانتهى بموته انقلاب كان يهدد بغداد بالكثير من الفوضى. وكان يخشى حدوث ما حدث في عام ١٨٠٢ في ظروف مماثلة، حين عاثت الحرب الأهلية فساداً في بغداد لمدة طويلة.

وهكذا قضى علي باشا بنفس الأساليب التي أوصلته إلى منصبه. فمن عبد لدى سليمان باشا، توصل إلى رتبة خزيندار، ولم يكن له من منافس في ذلك الوقت سوى الكيخيا أحمد، صهر سيده والمقرب إليه. وقد قرر التخلص من أحمد فقتله لدى خروجه من اجتماع مع سليمان باشا. وكان من المفيد بعد هذه الجريمة، إما التخلص من المجرم أو تقريبه بإعطائه المزيد. ووجد سليمان باشا نفسه ضعيفاً لا يستطيع اتخاذ تدابير قاسية، فكان عليه أن يداري قاتل أحمد وأن يقربه منه ليضمن صداقته. وهكذا أصبح علي صهر سليمان باشا ووزيره الأول[٦]. وها هو قد فقد سلطته بجريمة مماثلة للتي أوصلته إلى السلطة.

فكر سليمان باشا، بعد الثأر لحميه أن يحل مكانه. وكانت أموال علي باشا قد أصبحت له، كما دانت له جميع جيوشه بالولاء. وهكذا أصبح فعلياً باشا بغداد ولم ينقصه سوى تكريس الباب العالي. وكان هذا يرغب في إعطاء الباشوية ليوسف باشا، الصدر الأعظم[٧] سابقاً، ولكن تأثير دولة أوروبية ذات حظوة في الآستانة[٨]، بالإضافة إلى الخوف من العقبات التي يمكن أن تقف

في طريق التنفيذ في بغداد، جعلت الباب العالي يصرف النظر عن ذلك. وأعلن سليمان باشا حاكماً لبغداد وانتهت بذلك ثورة لم تتعد حدود السرايا. ولم يؤثر ذلك في بغداد ولا في الأراضي التابعة لها، واحتفظ سليمان باشا بكل ما كان جمعه سلفه من إمكانات عسكرية ضد الأعداء في الخارج.

هكذا كانت إذاً الأوضاع السياسية في مصر وسورية وفي باشوية بغداد في نهاية عام ١٨٠٧. وكانت جميع هذه الولايات وعلى الأخص ولاية بغداد، مستقلة تماماً عن حكم الوهابيين بالرغم من التهديد المتواصل لها. أما وضع الجزيرة العربية فكان على عكس ذلك.

كانت تلك المنطقة بأكملها تخضع لسعود. وكان الوهابيون أسياد الصحراء التي تفصلها عن بقية آسيا. وكانت نجد في الجنوب تحت حكمهم، كما كانوا يحكمون في الدرعية، والأحساء، والطائف، والمدينة، ومكة، وما يتبع تلك المدن من قرى ومساكن. ولأخذ فكرة واضحة عن تقدمهم والسلطة التي يملكون في الجزيرة العربية، يجب الملاحظة أن عرب الصحراء لا يقيمون داخل المدن، لذلك فإن قوة الوهابيين كانت أكثر ما تكون حول تلك المدن. وفي أرض نجد ومكة وحدهما لم يقلّ عدد رؤساء القبائل الذين انضموا للوهابيين عن الستة، كلهم رهن إشارة سعود. وهؤلاء كانوا: أبو نقطة، وعثمان المضايفي، وابن حديلان، وابن جبارة، وابن المضين، وسالم بن سالم. وأما البقية فكانوا ابن الدرع وابن السراح وابن علي وأبو زيد، وأبو مسمار وابن شكبان، ومحمد الجاسم، وابن خليف. وكان أبو نقطة رئيس عدد من القبائل الرحل يتنقل في مختلف مناطق اليمن، على رأس ثمانين ألفاً من الرجال، يمتطون الإبل ويتسلحون ببنادق فتيلة. وكان عثمان المضايفي يقطن الطائف

ويأتمر عشرون ألف عربي بأمره، جميعهم منتشرون حول مكة. وكان المضايفي حما شريف مكة، فأصبح من ألد أعدائه بفضل أبي نقطة.

وكانت الدرعية مركز ابن حديلان، ولم يكن يقترب من الحجاز إلا عند موعد الحج، وكان أربعون ألف عربي من اليمن[٩] تحت أمره، أغلبهم يمتطون الإبل، وبينهم ألفا مسلح بالرماح يمتطون الجياد.

وبين مكة والمدينة تقع ينبع البر، وهي مركز ابن جبارة الذي كان لديه عشرون ألف راجل، كما تقع جديدة بقببها وهي مركز ابن المضين ولديه عدد مماثل من الرجال. وهذه القرية الأخيرة تعد ما بين سبعمائة وثمانمائة نار [هكذا]، وبجوارها الكثير من المياه الجارية ومن البساتين التي تلطف جو ضواحيها. وتقع جديدة على الطريق التي كانت تسلكها القوافل الآتية من دمشق.

وكان سالم بن سالم أقل هؤلاء الرؤساء شأناً. فكان لديه خمسة آلاف عربي منتشرون في ضواحي مكة. ولم يكن ولاء هذا الرئيس طوعياً فقد كان إيجار الإبل إلى الحجاج أيام قدوم القافلة يوفر له دخلاً عالياً، وقد فقد هذا الدخل عند طرد العثمانيين من الحجاز. فأصبح منذ ذلك الوقت ينقل البضائع على إبله ما بين جدة والمدينة وغيرها من مدن الجزيرة العربية، وكان له مركز هام لدى بقية الرؤساء الذين كانوا يلجأون دائماً إلى مشورته.

يلاحظ بعد هذا التعداد أنه كان بإمكان سعود أن يجمع أكثر من مائة وثمانين ألف رجل في الجزء الشمالي وحده من الجزيرة العربية. ويجب أن يضاف إلى هذه القوى، ما يمكن جمعه من القبائل

الرحل، وما يمكن حشده في المدن الخاضعة لسلطته. وهذه الأخيرة أصبحت من الأتباع المخلصين لصاحب الدعوة، بعد أن أخضعت بالقوة في أول الأمر، وهذا ما شاهدنا آثاره في الاستقبال الذي لاقته قافلة دمشق الأخيرة، وفي الدرجة التي وصلت إليها الحماسة في أولى هذه المدن.

واغتنم سعود ما خلفته هذه الحماسة، ليبعد عن المدينة وعن الأماكن المقدسة، العدد القليل من المسلمين الذين ظلوا محافظين على طقوسهم ولم ينضموا إليه. كذلك طرد جميع العثمانيين من دون تمييز من الجزيرة العربية بموجب قرار أصدره في شهر نيسان من عام ١٨٠٧، ونفذ هذا القرار بكل دقة. ورحل هؤلاء المساكين ضحايا التعصب[١٠] في عدة قوافل تحت الحراسة حتى ميزيريب، ولجأوا إلى دمشق وطرابلس وغيرها من بلاد سورية. وكانت حالتهم التعيسة تبعث على الشفقة. وقد حاول بعض المسنين منهم عبثاً استدرار عطف سعود ليأذن لهم بالبقاء في بلاد تعودوا مناخها وأحبوا قضاء آخر أيامهم فيها. لكن سعوداً لم يلب أي طلب لهم لأنه كان قد عزم على أن لا يبقي في أواسط بلاده، إلا المخلصين لعقيدته.

هذه كانت إمكانات سعود داخل الجزيرة العربية. أما في شرقي الجزيرة فكانت جميع القبائل تخضع له. وقد انضم إليه مؤخراً لطوف بك ابن محمد بك شاوي، مع عدد كبير من العرب القاطنين في جوار بغداد، فزادوا في إمكاناته. وكان لطوف بك قد أصبح وهابياً بعد فترة قصيرة من مقتل أبيه بأمر علي باشا. وهو نفس لطوف بك الذي استولى على قريتي هيت وعانة على شاطئ الفرات بمساعدة بعض الوهابيين وبعض رجال قبيلة العبيد وقام بعمليات سلب كبيرة.

وكان القواسم، على الضفة الغربية للخليج الفارسي يخضعون لسعود، فكانوا يحتلون جزيرتي البحرين وزبارة كما كانوا يحكمون رأس الخيمة الواقع جنوبي الجزيرة العربية، والذي يطل على الخليج الفارسي، بشكل يتيح له السيطرة على الملاحة في الخليج. ومن ذلك المكان كانت تنطلق مراكب القواسم فتسلب السفن القادمة من الهند حيناً، وتغزو شواطئ أبو شهر على الضفة الشرقية حيناً آخر. وكانت مراكبهم خفيفة تحمل ما بين اثني عشر وستة عشر مدفعاً، وتنقل أربعمائة أو خمسمائة رجل. وكانت تقترب من العدو، فينزل الرجال في مركبه، ولا يتركون له أي أمل بعد ذلك. وهذا ما جعلنا نسمع أن الكثير من المراكب البريطانية كانت تفضل تفجير نفسها على الاستسلام، لدى مقابلتها للقواسم، وإدراكها العجز عن مقاومتهم. وكان هذا الوضع بما يحمل من أخطار، كالخوف من الموت أو الاسترقاق، السبب في وقف التجارة في الخليج.

وباستيلائهم على المراكب البريطانية وعلى غيرها من مراكب الهند، ونقلهم ما عليها من مدافع، أصبح لدى القواسم مدفعية هائلة، زوّدوا بها جميع مواقعهم على شاطئ الخليج. وكان رأس الخيمة أهم هذه المواقع لوجوده على رأس جبل صعب التسلق. وكان هذا الرأس مركزاً لحاكم القواسم أو كبير مشايخهم، عبدالله بن جاور. وكان من مهام هذا الشيخ الإشراف على اقتسام الأسلاب التي ترد من الخليج فكان يفرز نصفها لصالح سعود[١١] الذي كان يضيف بهذه الطريقة ثروات جديدة إلى ما خلفه له عبد العزيز من ثروات.

وبالإضافة إلى كونه سيد الشواطئ الشرقية والغربية من الجزيرة العربية، ومسيطراً في الداخل، فقد كان لسعود تأثير كبير في

الجنوب. وكانت رهبة اسمه قد نشرت سلطته في تلك المنطقة قبل الاعتراف بها رسمياً. وكانت مسقط أول من تأثر بتلك السلطة. وقد رأينا كيف استولى بدر على الحكم عند وفاة عمه سيد سلطان آخر إمام في هذه المدينة، وذلك بعد تنحية سعيد بن سلطان وسالم وكلاهما ولدا سيد وويرثاه الشرعيان، وقد تم ذلك بمؤازرة الوهابيين.

ودفع المختلس استقلال بلاده ثمناً لذلك، بالإضافة إلى ضريبة سنوية، بالرغم من أنه كان مخلصاً للوهابية وقد اقتدى به قسم كبير من السكان، أما القسم الباقي فقد ظل محافظاً على دينه وعلى إخلاصه لأميره. وكانوا قد شكلوا حزباً في المدينة نفسها حاول بدر إضعافه بنشر تعاليم عبد الوهاب في مسقط بشتى الأساليب. ولما كانت سلطته مرتكزة على ولائه للوهابية، فقد أراد استعمال السلطة لتقوية تلك الحركة، وبالتالي تقوية سلطته. ولكن استعمال القوة في شؤون الدين واستغلاله يؤدي إلى أوخم العواقب، وهكذا لم تؤد القوة التي أراد بدر استعمالها في مسقط بغية إضعاف أخصامه، إلا إلى زيادة صلابتهم.

وخلال فترة قصيرة أصبح الحزب قوياً لدرجة الانفجار. وكان ولدا سيد سلطان قد كبرا، ونال كبيرهما إعجاب الشعب بما كان يتحلى به من صفات طيبة، فاختاروه رئيساً لهم. وأصبحت مسقط مسرحاً لحرب أهلية لم ير بدر بنهايتها خلاصاً إلا بالهرب، فالتجأ إلى القواسم حيث استقبله عبد الله بن جاور.

كان الإمام الجديد مناوئاً لسعود، بسبب الدين من جهة وبسبب السلطة من جهة أخرى. وكان في البداية على استعداد لدفع مبلغ

خمسة وعشرين ألف قرش إلى الوهابيين سنوياً، كما كان يفعل سلفه. ولكنه فكر في اغتنام فرصة هرب بدر وضعف مؤيديه فرفض دفع أي مبلغ بعد ذلك وجهز أسطولاً لمهاجمة القواسم انتقاماً لموت أبيه.

تفصل بلاد القواسم عن مسقط جبال مرتفعة، والممر الوحيد بينهما يطل عليه حصن رأس الخيمة. لذلك كان الاستيلاء على هذا الموقع أهم أمر بالنسبة للإمام الجديد. فمنه كان سيستطيع وقف غزوات الوهابيين وحصرهم وراء الجبال، فيعيد لوطنه استقلاله السابق بهذه الطريقة. ولكن هذا الأمر لم يكن قابلاً للتنفيذ بوساطة جنود كلهم عرب مسلحون تسليحاً رديئاً لا يصلحون للقتال لفترات طويلة ولا قدرة لهم على الاستمرار. لذلك لم تتعد العملية الأولى نزولاً بسيطاً على الشاطئ، بالرغم من أن مركباً بريطانياً كان يؤازر أسطول إمام مسقط، والعمليات كانت تجري بقيادة عميل بريطاني هو السيد سيتن. فكان من المستحيل الاقتراب من أسوار رأس الخيمة، وانسحب الإمام نادماً لتركه بين يدي أعدائه موقعاً هو بالواقع مفتاح دولته. ولكنه توصل بعد زمن بعيد، إلى الاستيلاء عليه بعد أن أعد حملة مدروسة لهذه الغاية.

الهوامش

(١) يقصد أن الباب العالي لم يكن يجرؤ على عزل أبي المرق باشا، لذلك تركه في منصبه حاكماً لجدة، وعين عثمان باشا في حلب وكلفه بالحملة. وهذا اللف والدوران كان شيئاً عادياً في أمور السلطنة.

(٢) كان هذا اقتراح جان ريمون الذي أثبته في نهاية تقريره، وكأنه قد لاقى قبولاً من الحكومة الفرنسية فأبلغت الباب العالي نصيحتها بتنفيذه، وذلك بالهجوم على ثلاث جبهات في آن واحد. ولا بد من الإشارة إلى أن تأثير الفرنسيين في الآستانة كان كبيراً في ذلك الوقت. وقد ذكر المؤلف في مكان آخر من هذا الكتاب أن رغبة السفير الفرنسي كانت السبب في تعيين سليمان باشا لولاية بغداد عوضاً عن يوسف باشا.

(٣) لم يخلِ البريطانيون مصر إلا في عام ١٨٠٣ بعد انتظار طويل وانقضاء مدة طويلة على الموعد الذي حددوه لذلك. وبإعادتهم تلك البلاد إلى السيد الكبير، لم يعيدوا له سلطة كان فقدها منذ أجيال طويلة. وكان المماليك وقد أضعفتهم الحرب مع الفرنسيين ما زالوا يشكلون حزباً قوياً يسانده البريطانيون أنفسهم.

وقد حاول هؤلاء دخول مصر مجدداً في عام ١٨٠٧ بناء على حسن علاقتهم بالمماليك التي ظنوا أنها ستعطيهم بعض المزايا. ووصلوا شواطئ مصر في منتصف آذار بأسطول يعد أربعة وثمانين مركباً شراعياً ونزلت جيوشهم في الإسكندرية من دون مقاومة. ونشر الاستيلاء على هذه المدينة الخوف في كافة أنحاء مصر.

وكان محمد علي باشا آنذاك باشا القاهرة ونائب الملك في مصر، يقاوم المماليك مقاومة عنيفة منذ عامين. وكان البكوات في الوجه القبلي على شواطئ النهر يشكلون فرقاً من المسلحين، وقد استولوا على المنية وجميع مدن الوجه القبلي. وفي الوجه البحري كان ألفي بك يحاصر دمنهور منذ زمن طويل ولم يتركها إلا لاجتياز الدلتا وضم جنوده إلى أولئك الذين كانوا

يعيثون فساداً على شواطئ النيل الشرقية.

وكان باشا القاهرة يفكر منذ ستة أشهر بوسيلة لاستعادة سلطته على الوجه القبلي، وفيها أخصب المقاطعات، التي كانت تستطيع تأمين إعاشة جنوده. وقد جمع في القاهرة جميع المراكب المتوفرة في الأماكن التي كانت تخضع له في مصر، لنقل جنوده، وجرى ذلك في عام ١٨٠٦ حين تحرك الجيش بعد عيد الأضحى من ذلك العام.

واختار البريطانيون هذا الوقت بالذات للنزول في الإسكندرية فوجد محمد علي باشا نفسه مضطراً لمواجهة البريطانيين في الشمال والمماليك في الجنوب. وشعر بأنه لن يستطيع إخضاع هؤلاء، لذلك حاول التحالف معهم. فعقد معهم صلحاً ترك لهم بموجبه القسم الممتد من المنية حتى الشلالات.

وعاد محمد علي باشا إلى القاهرة في ١٠ نيسان، وظهر في البداية وكأنه يشارك السكان بأسهم ومخاوفهم من نزول البريطانيين في الإسكندرية. ولكن قنصل فرنسا المسيو دروفي وصل إلى القاهرة في نفس الوقت بعد أن نجا لحسن حظه من البريطانيين في الإسكندرية. فبيّن لسعادته السهولة التي يمكن بها التغلب على جيش مكون من جنود من مختلف الجنسيات، أضعفه السفر الطويل وقساوة المناخ. فبدد كلامه اليأس العام وبعث الرغبة بالفوز بدلاً من الأمل بالمقاومة.

وتسلح جنود عديدون في القاهرة وفي ضواحي تلك المدينة. وكثر تحصين القلعة والحصون التي بناها الفرنسيون في الجيزة وفي بولاق وحول القاهرة. وأرسل البريطانيون في هذه الأثناء، وبعد أن أصبحوا أسياد الإسكندرية، فرقة مكونة من ألفي رجل لمهاجمة الرشيد، فلم يجدوا أية مقاومة ودخلوا المدينة من دون احتياط. وكان الجنود العثمانيون الموجودون فيها انسحبوا وراء الأسوار وداخل المنازل يترقبون دخول العدو إلى الشوارع لكي يطلقوا عليه النار. وكانت النار حامية وقتالة لدرجة اضطرت البريطانيين إلى الانسحاب بعد أن خسروا خمسمائة رجل كما خسروا قائد الحملة. وتمركزوا في برج أبي المندور بعد أن زادوا عددهم ببعض الإمدادات من الإسكندرية. وبعد

تحصين موقعهم عادوا إلى رمي الرشيد بالمدافع.

وزاد هذا الانتصار الأول في عزم العثمانيين. وكان الهمّ منصرفاً في البداية إلى تحصين القاهرة والدفاع عنها. فأصبح الهدف طرد البريطانيين من مصر. وانضم أربعة آلاف دالاتي للدفاع عن الرشيد، وعلى رأسهم الكيخيا. وصدرت الأوامر إلى فرق أخرى بأن تلحق بهم. ووعد المماليك بالانضمام إليهم، فوجد البريطانيون أنهم أصبحوا أعداءهم بعد أن كانوا يأملون مساعدتهم.

واضطر البريطانيون إلى رفع الحصار عن الرشيد، ولكنهم ظلوا يقاومون بضعة أيام في المواقع التي احتلوها حول المدينة. وتمكن الدالاتية من إخراجهم، فانسحبوا من أبي المندور إلى عاتكة حيث حوصروا بضعة أيام ووجدوا أنفسهم بالنهاية مضطرين إلى الانسحاب حتى الإسكندرية.

وكان عددهم في الإسكندرية يراوح ما بين ثمانية آلاف وعشرة آلاف مقاتل، بينهم عدد كبير من الصقليين والأجانب. وكانت الإمدادات التي تأتي من مالطة قليلة والمؤونة غير كافية لحاجات مدينة منفردة في الصحراء. وزاد في حدة المجاعة ما اتخذه البريطانيون من تدبير بفتح الترعة لحماية انسحابهم، فانقطعت جميع مواصلاتهم مع بقية الأراضي المصرية.

ولم يفقد البريطانيون أمل الاحتفاظ بالإسكندرية، فقد جهزوا حوالى الثلاثين مركباً، وانتظروا الفيضان للتقدم نحو الدلتا. ولما علم محمد علي باشا بالأمر لم يترك لهم فرصة تنفيذه. وكان جيشه في القاهرة يعد حوالى عشرين ألف رجل، تقدموا جميعهم وهو على رأسهم إلى الرشيد.

وعبثاً حاول البريطانيون إيقافه بأن أعلموه بإرسالهم من يتفاوض مباشرة مع السيد الكبير في الآستانة، للجلاء عن مصر. ولما لم تنجح هذه المحاولة اضطروا للاستسلام. وسلمت الإسكندرية فدخلها الكيخيا في ١٨ أيلول، ولحق به محمد علي باشا بعد بضعة أيام. وكان قسم من الحامية البريطانية قد انتقل إلى أبي قير لانتظار استلام الأسرى، فوجد السفن جاهزة للإقلاع، وتم الجلاء عن كافة مواقع مصر.

هذه خلاصة تاريخ حملة كانت غايتها الاستيلاء على مصر، اقتصرت على احتلال الإسكندرية وعلى هجوم غير موفق على الرشيد. وكان بإمكان هذه البلاد الغنية أن تزود البريطانيين بسخاء بالحبوب والمواد الغذائية، التي لا يقدر ثمنها بالنسبة لهم، إذ إنهم ما زالوا يفتقرون إلى نقطة ارتكاز على سواحل البحر الأبيض المتوسط، بعد أن أصبحوا أسياد سطح البحر كله. وقد عرضوا على الباشا أن يتركوا لجميع السفن حرية دخول مرافئه، شريطة أن يسمح لهم بالتموين في تلك المرافئ. ولكنه رفض ذلك. واستاء علي باشا من جبن سكان الإسكندرية وأقسم بأن يجازيهم بشدة. وخاف السكان وهرب من كان قادراً منهم فلجأ إلى سورية والولايات المجاورة.

وارتكب جيش الكيخيا الكثير من الإساءات في الإسكندرية، وعلى الأخص الأرناؤوط منهم الذين أظهروا براعة في التفظيع والنهب. وأدرك محمد علي باشا متأخراً النتائج الوخيمة لحركة كان عليه إيقافها منذ بدايتها. وعبثاً حاول إيقاف الأرناؤوط، إذ تحول غضبهم نحوه بعد أن زادت حماستهم نتيجة ما قاموا به من النهب والتفظيع. ولم ينجُ نائب السلطان في مصر إلا باللجوء إلى القاهرة مع بعض فرسانه.

وفي مدة قصيرة عمّت الفوضى، التي بدأت في الإسكندرية، جميع أرجاء مصر. فوقع هذا البلد الجميل، ضحية جشع الجنود وتمردهم، بعد أن قاسى ما قاساه خلال القرون الماضية من الفوضى ومن الاضطهاد. وانتقل التمرد إلى القاهرة خلال فترة قصيرة. ففي ١٤ تشرين الثاني هوجم محمد علي باشا بالرصاص من قبل جنوده أنفسهم، وفي ٢٦ من الشهر نفسه هجم فريق من الألبان على القصر، فأحدثوا فيه جلبة وتخريباً وهم يطالبون بدفع رواتبهم المتأخرة. ولم يستطع محمد علي باشا تهدئة المتمردين، والرصاص يتطاير من حوله، إلا بإرسال اثنين من معاونيه، أجزلا الوعود لهم وقدما نفسيهما رهينة لتنفيذ تلك الوعود.

وتجددت هذه الاضطرابات في الأيام التالية، فلم ير نائب السلطان بداً من الانسحاب إلى داخل القلعة، ففعل ذلك ليلة ٢٦ تشرين الثاني. فنهب

المتمردون قصره ولم يعفوا إلا عن الحريم. وفي هذه الأثناء كان الباشا قد جمع ديوانه واستدعى كبار الضباط، فأعلمهم بما يشكو من جشع الجنود ومن قلة انضباطهم والوحشية التي يعاملون بها البلاد، وكان واجبهم حمايتها والدفاع عنها. وقال إنه لن يتحمل بعد الآن، نزولاً عند رغبات بعض الأفراد، أن يجرد اليهود والمسيحيون، والإفرنج وحتى المسلمون من ممتلكاتهم. لأن بهذه الطريقة تستنفد المصادر التي وحدها تستطيع تأمين نفقات الجيش. وأضاف أن هذه النفقات كانت دائماً تدفع بدقة وان التأخر الحاصل سببه بعض الضباط الطامعين الذين يستأثرون بالمبالغ المعطاة لهم لدفع رواتب، لذلك فهو يطلب طرد هؤلاء الضباط ونفي رؤوس التمرد. ووعد أخيراً أن يدفع لجميع أفراد الجيش راتب ثلاثة أشهر، بل وأن يضيف إليها، بعد استيلائه على الوجه القبلي.

وكانت مهارة هذا الخطاب في أنه حاول التفرقة بين الجنود والضباط وكانوا حتى ذلك الوقت متحدين ضده. وشغل بال الضباط ما يمكن أن يصدر بحقهم من ملاحقات بناء على شكوك الباشا، فحاولوا إعادة النظام وأصدروا بلاغاً لهذه الغاية. وتوقف المتمردون عن أفعالهم ووعدوا بإعادة ما نهبوه من القصر، وبالفعل أعيد البعض منه.

وأول ما فعله محمد علي باشا بعد إعادة النظام كان إبعاد الرؤساء المتمردين، كما صرف من الخدمة الفرقة التي تميزت بتصرفها الشائن. وهكذا أضعف جيشه، فصرف النظر عن المشاريع التي كان أعدها ضد الوجه القبلي، وصدق على الحلف الذي كان سبق أن عقد مع البكوات في ١٨٠٨.

وإننا نعتذر عن طول هذه الحاشية لأننا أردنا سرد الحوادث الرئيسية التي مرت بمصر منذ خروج الفرنسيين لأن مصير هذا البلد الجميل، ما زال موضع اهتمام كبير في فرنسا (حاشية المؤلف).

(٤) نعتقد أن هنالك فائدة في الاطلاع على الأوضاع التي أدت إلى هذا الانقلاب، وهذه الرواية تشكل جزءاً من إنتاج خاص عن مختلف الشعوب التي تقطن سورية حالياً، سوف ننشره قريباً (توفي المؤلف بالكوليرا قبل إكمال

إنتاجه المذكور).

احتفظ سكان جبل لبنان باستقلالهم، كما هو الحال بالنسبة لجميع سكان المناطق المرتفعة. ولما كان من الصعب مهاجمتهم في بلادهم، فإنهم وحدهم يصنعون قانونها. ولكن اضطرارهم إلى كسب عيشهم جزئياً من البلاد المحيطة بهم، يجعلهم يتكلون عليها لهذه الغاية. وهكذا يعتبرهم السيد الكبير من بين رعاياه، فيدفعون له الميري. وجباية هذه الضريبة بالإضافة إلى حق تعيين الأمراء الذين يحكمون في الجبل، وهو حق صوري، هما وحدهما مظاهر تلك السيادة.

والسلطة الحقيقية تتمركز في عائلة واحدة، وغالباً ما تكون بيد أميرين، وأحياناً بيد أمير واحد. وتحكم كسروان ومقاطعة أخرى من قبل الأمير الكبير. والأمير الأصغر يكون أمير جبيل عندما تفصل تلك المقاطعة من المقاطعتين المذكورتين. ويقوم هؤلاء الأمراء بجباية الميري ويدفعونها إلى باشا عكا وباشا طرابلس. وتدفع هذه الضريبة حالياً بكل دقة. والسبب في ذلك الحاجة إلى المواصلات مع بيروت وصيدا وطرابلس وعكا. لذلك فإن طموح الأمراء الأول هو الاستيلاء على بيروت أو أية نقطة أخرى على الساحل، لأن هذا المنفذ يحقق لهم استقلالهم ويضمنه.

ويمكن إحصاء أكثر من ثلاثين رئيساً أو أميراً صغيراً تحت يد الأميرين الكبيرين. وهؤلاء يحكمون مختلف الأقضية ويقومون بجباية الميري. وهذا الرسم يستوفى على شجر التوت والمطاحن والعقارات. وتضاف إليه الضرائب المتوجبة للأمير.

وللعائلات الدرزية وحدها الحق في المطالبة بلقب أمير. والأميران الأكثر أهمية هما من بيت شهاب، وكانا في عام ١٨٠٨ الأمير بشير والأمير حسن، وقد توصلا إلى هذا المركز بعد الانقلاب الأخير الذي نورد تفاصيله في ما يلي:

كان الأمير يوسف ذا سلطة كبيرة في لبنان، فاعتقله جزار باشا وأعدمه. وقد نشرت تفاصيل هذا الحادث، كما نشر حادث قتل غندور وزير الأمير. وكان

هذا الأخير قد لجأ إلى طرابلس استعداداً للهرب بكنوزه إلى أوروبا. وقد أغراه الجزار بالوعود، فأرجعه إلى عكا. ومن أطباع العثمانيين المميزة، بذل الوعود المقرونة باليمين المعظم، ونقضها بعد ذلك من دون أي تبكيت للضمير. وهكذا استقبل غندور في البداية أحسن استقبال، ولكنه كبل بعد ذلك بالحديد وأرسل للتعذيب. ولم يستطع الجزار أن يغفر له حمله لقب قنصل دولة أوروبية، بعد أن وقف طويلاً في سبيل الموافقة على ذلك من قبل الباب العالي. وقد هزأ من غندور قبيل تسليمه للجلاد بتذكيره بصلاحياته كقنصل.

ولم يستطع أي حاكم أن ينال السلطة التي نالها الجزار في لبنان، وكان أصلها التفرقة التي كان يزرعها بين الأمراء. وكان لتأييد الجزار وزن كبير في ميزان تعادل القوى، فباع هذا التأييد لكل واحد منهم، فكان يبدل من استهلاك ثروته بخصمه الذي كان يفقر بدوره. وهكذا كان تصرفه بين الأمير يوسف والأمير بشير، كما بين هذا الأخير وبين أولاد الأمير يوسف: تارة صديقهم ثم عدوهم تارة أخرى. وكان يحتفظ بهم سجناء في عكا حيناً، ثم يبيعهم بالذهب حاكمية الجبل.

وهذا الأسلوب يتبع دائماً في الدولة المستبدة، وهو أسهل وسيلة تتيحها السياسة للحاكم ولمن يضع السلطة بين يديه. وحيث إن السلطة لا حدود لها في أيدي رئيس، فهي كذلك في أيدي من ينتدب. ومن هنا تأتي السهولة في استغلال هذه السلطة.

وترك الأمير يوسف ثلاثة أولاد، حجز منهم الجزار سعد الدين وسليم في عكا بعض الوقت ثم أخلى سبيلهما، واحتفظا ببعض سلطة أبيهما. أما الثالث فكان صغير السن لذلك ظل في وصايتهما. واختارا مساعدين لهما جرجس باز وعبد الأحد، وكلاهما من العائلات المارونية العريقة.

وهذا الشعب الماروني الذي يشكل قسماً كبيراً من سكان لبنان، له حياة سياسية متقلبة. فأحياناً يقع تحت حكم الدروز القاسي. بينما يسيطر على هؤلاء سيطرة كبيرة أحياناً أخرى. وسبب هذه التقلبات في أطباع المارونيين واضح. فهم مثلهم مثل جميع مسيحيي الشرق، يهمهم التأثير على الحكومة،

ويهمهم أكثر من ذلك تلافي المسؤولية التي يأتي بها هذا التأثير. لذلك نجد لهم سلطة تختبئ في الزوايا، تكون أحياناً أكثر فاعلية من السلطة الحقيقية، ولكنها تهمل إذا كان الأمير صلباً وذا إرادة قوية. وهذا أحد أسباب التعديلات المتتالية في وضع الدروز في لبنان. وقد ترك أولاد الأمير يوسف عند توصلهم إلى السلطة في جبال لبنان، الكثير من صلاحياتهم لمساعديهم المارونيين.

وكان جزار باشا قد أوكل السلطة إلى الأمير بشير بعد وفاة عمه الأمير يوسف، ووافق جميع الأمراء على هذا الاختيار. وإن كان الأمير بشير قد احتفظ بلقب حاكم فإن تأثير أبناء عمه قد خفف من سلطته. وخشي زيادة هذا التأثير، لذلك فتش عن حماية دولة أجنبية. وكانت حماية البريطانيين أفضلها بنظره وأقربها منالاً.

وكان السير سيدني سميث في هذه الأثناء في مياه الإسكندرية برفقة مركبين، فقصده الأمير بشير الذي استقبل بحفاوة بالغة وأقام عدة أشهر على أحد المركبين ظهر بعدها في الجبل كحليف للبريطانيين. وأصبحت علاقاته معهم وحمايتهم له معروفة لدى العموم.

وفي بلاد تتأرجح السلطة بين أياد كثيرة فلا تستقر في أي منها، فإن أقل المسببات تعطي أكبر النتائج. وسطوة الرئيس لا قيمة لها إلا بما يستطيع خلقه من رأي عام حول هذه السطوة. فالواقع أن تأثير أي كان يعتمد على القوة التي تعتقد فيه، وقياس هذه القوة يفوق إدراك الشعب. وهذا ما برهنت عنه خطوة الأمير بشير، إذ إن حماية البريطانيين لا تأثير لها في لبنان، فليس بقدرتهم الاقتراب منه، وهم بالتأكيد لن يحاولوا ذلك. ومع ذلك فإن لقب حليف السيد سيدني سميث جمع الكل حول الأمير بشير. واستغل أولاد عمه هذا التحول، وتأثير السيد سيدني سميث على الجزار فتقربوا من الأمير، وعادت علاقات الصداقة بينهم. وكان تحالفهم يبدو متيناً.

وعندها اقتسموا حكم الجبل بين الأمير بشير والأميرين سعد الدين وعبد الأحد. وكان لهذين الأخيرين حكم المناطق الممتدة من حريصا إلى عكا،

واحتفظ الأمير بشير بالمناطق الباقية من الجبل ما بين حريصا وطرابلس. ولتلافي الخلاف عين أولاد يوسف وكيلاً لهم بالقرب من الأمير بشير حيث كان يهتم بالشؤون التي تهم الطرفين، وفي الوقت نفسه يعتبر كرهينة لحسن نية أسياده.

والماروني بطبعه يعتبر أقل الناس رغبة في المحافظة على السلام. ولما كانت ديانتهم تبعدهم عن كافة المراتب العالية، فإن مسيحيي الشرق يعوضون عن السلطة الخارجة عن أيديهم، بالسلطة التي يحاولون انتزاعها من أصحابها. وللفوز بها والاحتفاظ بها، يبذلون الجهد في تنمية الخلافات العائلية وتغذية الشهوات، مما يعطيهم بعض السلطة. ومراوغتهم المتناهية تعطيهم ألف وسيلة للقيام بذلك. وهذه الصفة تشكل الطابع الأخلاقي العام لدى كل شعب معرض للظلم بصورة شبه دائمة، وهي الوسيلة الوحيدة لتلافي هذا الظلم. ولكن المشاغبات التي يخلقون، غالباً ما تكون عاقبتها وخيمة عليهم. وهكذا كان مصير باز، لأن السلطة التي اكتسبها أعادت للأمير بشير مخاوفه الأولى، فأراد التخلص منه بصورة دائمة.

وبينما كان كل شيء يبدو هادئاً، قتل الوزيران باز وعبد الأحد في وقت واحد في دير القمر وفي جبيل. وفي الوقت نفسه ألقي القبض على أبناء الأمير يوسف الثلاثة. وأمر الأمير بشير باقتلاع أعينهم. وقد دبرت المؤامرة بكثير من المهارة بحيث أوقف الجميع في نفس اليوم بالرغم من المسافات التي تفصل بينهم، دون أن يبلغ السر أحداً. وكانت المؤامرة قد أعدت بالاتفاق مع الأمير حسن شقيق الأمير بشير الذي يقتسم سلطته اليوم.

وزادت قوة الأميرين بهذا الانقلاب وعيّنا وزيرين لهما أحدهما المدعو دادا والآخر أحد أولاد غندور. ويبدو أن السلطة أصبحت لهما لمدة طويلة. الا أنه يقال بأن التفظيع بأبناء يوسف المساكين، قد أعطى هؤلاء مؤيدين جدداً، وأن هذا زاد في عداوة مؤيدي الأمير بشير، وأن الفريقين ينتظران الوقت المناسب للاشتباك. ولكن أولاد يوسف وقد أصبحوا عاجزين عن الاشتراك بالأمور العامة، قد انزووا في بعض أملاكهم محاطين بأقارب لهم، كلهم ضعفاء وغير

معدين للقيام بأي دور.

ولم يتمتع الأمير حسن بلقبه طويلاً، فقد توفي في بداية عام ١٨٠٨، وورثه ابنه تحت وصاية الأمير بشير الذي زاد سلطته زيادة كبيرة بهذه المناسبة (حاشية المؤلف).

(٥) لعله جان ريمون صاحب المذكرة الواردة ترجمتها بهذا الكتاب.

(٦) الواقع أن سليمان باشا نفسه حرض علي آغا على قتل الكيخيا، وهذا ما يرويه عثمان بن سند في تاريخه. وكان جزاء علي آغا حلوله محل الكيخيا المقتول وزواجه من ابنة سليمان باشا. وكان سليمان باشا ينوي التخلص منه ولكنه عدل عن ذلك خوفاً من أتباع علي آغا.

(٧) غضب الباب العالي أخيراً على يوسف باشا فأعدم في عام ١٨١١.

(٨) كانت مراجعات سعادة سفير فرنسا في الآستانة سبباً في إقناع الباب العالي بإسناد باشوية بغداد إلى سليمان باشا (حاشية المؤلف).

(٩) يقصد اليمامة.

(١٠) الواقع أن هؤلاء كانوا ضحايا تعصبهم وقصر نظرهم وإصرارهم على البقاء على ما هم عليه من ضلال.

(١١) ليس صحيحاً ان نصف الغنائم كانت تذهب للإمام سعود بل الواقع أنهم كانوا يفرزون منها الأخماس كالعادة ويوزعون الباقي بين المستحقين.

الفصل الثاني عشر

الوهابيون في سورية ومصر

جمعنا في الفصل السابق كافة التفاصيل التي يمكن أن تعطي فكرة واضحة عن وضع الوهابيين والولايات المجاورة لهم في بداية عام ١٨٠٨. وهذا العرض الذي ليس ما يضاف إليه اليوم يضم على ما نعتقد أفضل المعطيات، لحساب أبعاد توسع الوهابيين واحتمالات هذا التوسع في المستقبل. وتعطي هذه التفاصيل إيضاحات أكثر واقعية من تلك التقديرات العصبية التي أثارتها في أوروبا انتصارات عبد العزيز الأولى، ولفتت النظر إلى الوهابيين في ذلك الحين. وهنالك آلاف الأوضاع يمكن أن تؤثر ما بين الفينة والفينة على طباع هؤلاء. وكان موت عبد العزيز أحد هذه الأوضاع. لذلك فإنه من الصعب التكهن بما ستصل إليه قوة الوهابيين، ويمكن فقط معرفة ما هي عليه اليوم. أما تحديد ما سيصبحون عليه في المستقبل بالاستناد إلى ما هم عليه اليوم فمسألة صعبة الحل، وليس من حيز التاريخ حلها.

كان أمام سعود سبيلان لفرض سيطرة الدعوة الإصلاحية، أولهما احتفاظه بقيادة قافلة الحجاج، والثاني منع الحج على المسلمين غير الوهابيين. وها هو قد أعاد قافلة دمشق. وظهر لمدة من الوقت أن تراجع عبدالله باشا سيؤدي بالعثمانيين إلى الاستغناء عن كل محاولة في هذا الاتجاه في المستقبل. ولكن قيادة الحج إلى مكة، كان لها من الأهمية بالنسبة للباب العالي، ما حثه على إجراء محاولة أخيرة.

ولم يعد بالإمكان الاحتفاظ بهذه القيادة بصورة علنية بعد أن بيّن سعود موقفه بوضوح بهذا الخصوص. ولكن الباب العالي كان يعتقد بأن المال سيجعله يقبل بالترخيص للمسلمين بالحج وبحمايتهم في الطريق إليه. فوعد سعود بدفع مبلغ أربعمائة كيس كانت تخصص لباشا دمشق، لإنفاقها في سبيل تدارك المزاد الذي كان يعد للقافلة في طريق عودتها من مكة. وكان هذا المبلغ بالإضافة إلى ما قد ينفقه الحجاج في مكة وفي المدينة يشكل رقماً هاماً لدرجة اعتقد أنها ستغري سعود.

وعلى كل فقد كان مشروع التقريب بين وجهتي نظر المسلمين التقليديين والوهابيين منهم لا يزال قيد البحث، وكان الباب العالي على استعداد بدون أدنى شك للتراجع عن كافة النقاط في سبيل التوصل إلى التفاهم. ولكن المصلحين (الوهابيين) بما هم عليه من تشبث بعقيدتهم، لم يتساهلوا في أي موضوع. وكان تشبثهم هذا وتشددهم في المبادئ، يضاهي تشدد المصلحين في كل العصور. خصوصاً أن التشدد وحده كان سبب وجودهم. وهكذا اجتمع التعصب والطموح للمحافظة على انشقاق كان الباب العالي يرجو زواله.

لم تبق سوى وسيلة وحيدة للتوصل إلى تقريب وجهتي النظر وهي أن يصبح المسلمون جميعهم وهابيين، أو أن يتظاهروا بذلك. ولعل تعليمات أرسلت لباشا دمشق بهذا الخصوص، أو أنه أجيز له اتخاذ كافة التدابير اللازمة لتسهيل مرور قافلة الحجاج، فأخذ على عاتقه مسؤولية اللجوء إلى تدابير أملتها عليه الظروف الراهنة كوسيلة أخيرة. أو لعله أراد أن يظهر بمظهر الوهابي بالبلاغات المشددة من دون أن يصبح كذلك بنظر المسلمين. وعلى كل حال فإن يوسف، الذي سمي باشا دمشق، ظهر وكأنه يعتمد جميع تعاليم الوهابية قبيل خروج القافلة من دمشق في كانون الثاني من عام ١٨٠٨.

وتمتاز الوهابية، بصفاء الأخلاق بصورة رئيسية، وبالتشدد في التمييز ضد الديانات الأخرى. لذلك تظاهر يوسف باشا بالتشدد في ما يخص الآداب العامة والمبادئ، كما تظاهر بالتعصب الشديد ضد اليهود والمسيحيين.

وفي بلاد يمنع فيها الاختلاط ما بين الجنسين، وتعتبر فيها المرأة متاعاً، لا يتنازل الرجل من حيث مساواة المرأة به، بل يعتبرها وقفاً على لذاته الجنسية. ولكن إرضاء الحاجة الجنسية لا يكفي وتظل الحاجة ملحة إلى إرضاء النفس بالغزل والتنادم وباللذة الذي يجدها الإنسان في مواجهة المقاومة في الغرام ومن ثم التغلب عليها.

والغرام شعور نفسي أيضاً، وإن كان في نفس الوقت حاجة جسمانية، ويجد المرء لذة بعد الوصول إلى الهدف الذي يقصد، أقل منها في الوسائل التي يستعمل للوصول إلى ذاك الهدف.

ويجب أن يعزى الشذوذ الجنسي الذي يتصف به بعض الشرقيين

إلى هذه الأسباب. فالشاذون من الباشوات وأصحاب الثروات أو أصحاب المراكز الرفيعة، لا يخجلون من إظهار شذوذهم علناً. فالغزل الذي يكون هدفه المرأة عندهم جريمة تستحق الموت، ولكنه أمر مباح إذا كان موجهاً إلى صبي شاب.

وهذه الجريمة تكاد تكون مفقودة بين الوهابيين بقدر ما هي منتشرة بين العثمانيين. لذلك كانت مكافحتها أول اهتمام يوسف باشا. فاتخذ التدابير لإصابتها في الزوايا التي كانت تتستر فيها، وعاقبها عقاباً شديداً. فلما وجد أحد الأغوات متلبساً بهذه الجريمة أمر برميه من أعلى منارة المسجد الرئيسي.

وأعلن يوسف باشا في الوقت نفسه قواعد لإجراء الطقوس الدينية، فأقفلت الأسواق والبازارات في أوقات الصلاة، ومنع شرب النبيذ وغيره من المسكرات. وفرضت على اليهود والمسيحيين علامات فارقة مهينة، فأجبروا على ارتداء الألبسة الداكنة وحذاء من نوع خاص وأمروا بأن يقفوا أمام الأتراك بوضع الاحترام الزائد. وحرموا من تعليم أولادهم أصول الدين وأجبروا كما أجبر المسلمون على ترك لحاهم. وكان يحكم على الحلاق بقطع اليد إذا ثبت أنه قام بحلاقة ذقن أي كان. وأخيراً منع استخدام الذكور ما لم تكن قد نبتت لحاهم كما منع الصبيان من ترك شعرهم يطول.

لم تكن الغاية من هذه الأنظمة التهديد فقط، لأنها كانت تطبق بشدة، وكان مخالفوها يخضعون لأقسى العقوبات. وقد أوقف مسيحي وشنق عند نشر هذه الأنظمة لأنه كان يحتذي حذاء أصفر. ونجا أربعة آخرون من العقوبة بإشهارهم إسلامهم.

وسببت هذه الإجراءات خيبة كبيرة في دمشق، ولم يجد اليهود والمسيحيون الخلاص إلا في الانزواء لأنهم باتوا يخشون اعتبارهم مذنبين تحت حكم سلطة تتسرع بالعقاب كما تتسرع بالتحذير، وأصبح الهرب ظاهرة عامة. ولكي يوقف النزوح، نشر يوسف باشا بلاغ عمر بن الخطاب القديم العهد، الذي يعدد واجبات اليهود والمسيحيين، ويبين الطريق إلى تلافي العقاب.

أراد يوسف باشا التقرب من الوهابيين عن طريق هذه التدابير القاسية، والسياسة الحازمة، بحيث ظهر بمظهر من يعتمد مبادئهم، حتى اعتقد أهل دمشق أنه سيتبع تعاليمهم قريباً بشكل علني. ولم يكن من شك في أن أصحاب الإصلاح سيلينون إذا ما شاركوا في هذا الاعتقاد. وظهر أثناء ذلك أن الوهابيين قبلوا بحماية القافلة، لأنهم أرسلوا سرية انتظرت على بعد ثلاثين ميلاً من دمشق لاستقبالها ومرافقتها في الصحراء.

وتركت القافلة دمشق في كانون الأول ١٨٠٧. وكانت في حالة تعسة، بلا رايات، ولا أسلحة ولا موسيقى، لا تنقل سوى مدفع واحد للإشارات. ولم تكن تعد أكثر من ثلاثمائة وخمسين حاجاً، بينما كان العدد يصل في الماضي إلى أكثر من ثلاثين ألفاً أحياناً. وكان يوم انطلاق القافلة يوم حداد بعد أن كان يعتبر من أيام الأعياد. وكان منظر الحجاج التعس والمهمل يظهر أكثر تعاسة بالمقارنة مع ذكرى الأبهة الماضية.

وكان اعتقاد يوسف باشا بأن سعوداً سيلين إذا ما نزل له عند طلباته، اعتقاداً خاطئاً. وعبثاً كان يأمل إغراءه بالبلاغات وبقساوة أنظمته وبالاتكالية التي ترك فيها القافلة. وقد انطوت عليه نفسه

حيل من كان يقصد أن يضل ويخادع. فما أن وصل الحجاج إلى بركة ست زبيدة حتى أمروا بالرجوع بناء على تعليمات سالم بن سالم، الذي كان سعود قد عينه لقيادة القافلة. وادعى هذا الأخير في مزيريب بأنه غير راض عن موقف يوسف باشا. وسواء كانت هذه الشكوى حقيقية أو أنها كانت حجة لتبرير طمع سعود فقد أغتنمها الوهابيون فرصة للاستيلاء على كنز الصرة أميني. وكان يبلغ مبلغاً هاماً.

هكذا انتهت آخر محاولة للعثمانيين للذهاب إلى مكة، ويقال إن يوسف باشا كان في وقت من الأوقات على اتفاق مع سعود وأنه أراد أن يصبح وهابياً ويسلم دمشق آملاً أن يحتفظ بحاكميتها تحت إمرة سعود. وأثنته خلافاته مع سالم بن سالم عن هذه الخطة. واضطرت القافلة إلى العودة نتيجة لهذه الخلافات. وفي هذه الأثناء أرسل سعود رسولاً إلى دمشق يحمل كتاباً إلى المشايخ والأعيان، يطلب فيه حسب عادته قبول دعوته، معاهداً المؤمنين الحقيقيين بالأمن والحماية ومتوعداً بتخريب المدينة في حال المقاومة. وأرسل في الوقت نفسه (آذار ١٨٠٨) كتباً بنفس المعنى إلى مشايخ حلب. وسلمت هذه الكتب إلى أحمد بن إبراهيم باشا إذ كان هذا الأخير في حماه. وكان سعود يطلب دفع جزية من مدينة حلب. وتلقت بقية المدن السورية كتباً مماثلة.

عم الاضطراب كافة أرجاء سورية وسرت شائعة بأن الوهابيين يقصدون دعم طلبهم بالقوة وقد أعدوا أربعين ألف رجل لهذه الغاية. والواقع أنه كان يبدو، لستة أشهر خلت، أن الوهابيين يهتمون بفتح سورية. فقد استولى عدد كبير من قبيلة العنزة على قرية بالقرب من حلب وقتلوا جميع أفرادها. وخاف اليهود

والمسيحيون في سورية من هذا الحادث وباتوا يتساءلون عن مصيرهم تحت حكم (المصلح). واستعد بعضهم للهرب، وأكد البعض الآخر أن المسلمين وحدهم معرضون للمسؤولية وكان برهانهم في ما حدث في مسقط. فعندما أرادت تلك المدينة الخضوع لسعود استفهم السكان عن معاملته لليهود والمسيحيين. وأجاب سعود بأن هؤلاء لهم كتبهم ويمكنهم التقيد بها، وأنهم سيجدون منه الأمن والحماية إذا دفعوا ما عليهم من جزية. وأضاف أن المسلمين وحدهم مسؤولون لأن لديهم الكتاب الحق وأنهم يفسدون ما جاء به بوثنيتهم القبيحة، لذلك فهو يحمل السيف لمحاربتهم وعليهم الاختيار بين الوهابية والموت.

وموقف سعود الصلب تجاه المسلمين أثبته ألف برهان. وهكذا أعطى الخوف بعض العزم لسكان سورية (من غير المسلمين). ففي حلب كان الإنكشارية أسياد المدينة. وكانوا على استعداد للتضحية بكل شيء لتلافي وقوعهم تحت سلطة تكافح الاستغلال فتزيل سبب وجودهم جميعاً. وفي دمشق، كان يوسف باشا وقد امتعض من تلاعب سعود به، يحرض السكان، مذكراً إياهم بما أصاب القافلة الأخيرة، وبمناظر البؤس الذي كان يشاهد لدى مشردي اليمن التعيسين، وبموت العدد الكبير من الحجاج الذين لم يستطع عبد الله باشا إنقاذهم. وكانت مراوغة الوهابيين التي مارسوها في مواقف عديدة، سبباً آخر للمقاومة.

وإلى هذه الأسباب كلها أضيفت المقاومة التي أبدتها البصرة والزبير وغيرهما في وجه الوهابيين، مما دعا إلى الاعتقاد بأنهم سيقهرون بسهولة. وأراد الجميع المشاركة في نصر كان يبدو سهل التناول. وتأكدت شائعة اقتراب الوهابيين بجيش يعد أربعين ألفاً، بقيادة

جدي [هكذا] وقد اختاره سعود ليكون حاكماً لسورية.

ويبدو أن سعوداً لم يكن يقصد من هذه الحملة سوى التهديد، كما سبق له أن هدد في مناسبات سابقة. لذلك صرف النظر عن الهجوم حالما علم بما يجري من استعداد للمقاومة في كل مكان. وكانت الخلافات المستحكمة في سورية في ذلك الوقت هي التي جعلته يأمل النصر السريع، ولكنه استغنى عن طلب هذا النصر باللجوء إلى حرب لا يمكن ضمان نتيجتها.

هكذا انتهت حملة سعود هذه، فأعطت مثالاً جديداً عن الصعوبة التي يلقاها الوهابيون، كلما أرادوا عبور الصحراء التي كانت تفصلهم عن بقية آسيا. وكانت له محاولة مماثلة ضد مصر قبل ذلك بتسعة أشهر، توصلت إلى نتيجة مماثلة[1].

والربح الوحيد الذي جناه من حملة سورية كان الاستيلاء على بعض القصور جنوبي دمشق وعلى طريق الصحراء. وأرسل يوسف باشا جيشاً لحماية القصور القريبة من دمشق. ولكن الجيش لم يستطع حماية الآبار والينابيع التي قام الوهابيون بردمها، مما جعل المواصلات بين سورية واليمن أكثر صعوبة منها في أي وقت سابق.

عطّل سعود طرق المواصلات القديمة، لأنه كان ينوي فتح طرق جديدة للتجارة أرادها أن تظل تحت سلطته. وكان يأمل أن تدر عليه ربحاً بما سيستوفيه من رسوم من القوافل. وهكذا أعيد فتح طريق كانت سالكة في القرون الوسطى، تسير من السويس إلى خان يونس، وهي أبعد نقطة في سورية، وفي نهاية الصحراء التي تصل بين آسيا وأفريقيا. ولكن استعمال هذه الطريق لم يدم أكثر من

بضعة أشهر. وقامت فرق من الوهابيين بحراسة القوافل التي كانت تنقل الجلود إلى السويس وتعود منها محملة بالبن اليمني وبضائع الهند. وسلكت قوافل عديدة هذه الطريق بعد خروجها من نابلس، فوجدت لها مزايا تفوق مزايا تلك التي كانت تصل ما بين حلب وبغداد فالبصرة. وأدى استعمالها إلى تخفيض سعر البن المستورد لسورية من خمسة عشر أو ستة عشر ألف قرش للقنطار إلى سبعة أو ثمانية آلاف قرش فقط. وهذا يبرهن أن الوهابيين كانوا يتحلون بتفكير حر بما يخص التجارة، وغيرها من الأساليب الآيلة إلى الاستفادة من محصول أراضيهم، خلاف ما كان يدعيه أخصامهم بهذا الخصوص. ولكن الحروب الداخلية التي انفجرت في ذلك الوقت في مصر، أوقفت استعمال هذه الطريق، وحال اهتمام سعود بمسائل أكثر خطورة، دون اهتمامه بأمرها.

الهوامش

(١) لم يرد ذكر أي غارة أو غزو أو محاولة غزو قام بها سعود ضد مصر في أي من روايات ابن غنام أو ابن بشر أو حتى لمع الشهاب وعثمان بن سند.

الفصل الثالث عشر

القواسم بين الوهابيين والإنكليز

وطد الوهابيون دعائم سلطتهم في الجزيرة العربية، ولكنهم لم يستطيعوا نشرها إلى أبعد من ذلك. وقد رأينا في الفصل السابق كيف صرفوا النظر عن احتلال سورية ومصر واكتفوا بالاستيلاء على بعض القصور المنفردة في الصحراء وعلى طريق سورية.

ولاستكمال دراسة تاريخ هؤلاء العرب يعوزنا إعطاء تفاصيل آخر محاولة لهم ضد باشوية بغداد. كان سليمان باشا حاكم تلك المدينة آنذاك، قد انتظر طويلاً قبل أن يوافق الباب العالي على تثبيته في وظيفته. وكان خليفة يوسف باشا الذي سبق أن كان على التوالي حاكم كونية وأرضروم وسيواس وحلب، وأصبح أخيراً وزيراً في الآستانة.

وعلى الرغم من انشغاله في الحرب التي أثارها علي باشا ضد عبد

الرحمن باشا، لم يفت سليمان باشا الاهتمام بوسائل مقاومة الوهابيين. واتخذ لهذه الغاية سبيلاً أميناً وهو مواجهة هؤلاء العربان بعربان آخرين. ولتحقيق غايته تقرب من بعض القبائل التي كان سلفه قد عاداها فصالح قبيلة العبيد في نهاية عام ١٨٠٧، وكان علي باشا قد جردهم من ممتلكاتهم، فأعادها إليهم، وجرب إخلاصهم بإرسالهم لتأديب بعض المتمردين.

وفي هذا الوقت انتشرت شائعة وفاة سعود، ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي ينتشر فيها هذا الخبر الكاذب. وفي هذه المرة كان تكذيب الخبر بعروض الصلح التي قدمها سعود في شباط ١٨٠٨ لسليمان باشا. وسواء كان يخشى هذا الحاكم أو أنه أراد خداعه، أو أنه ظن أنه يستطيع كسبه في دعوته، فقد أرسل إليه رسلاً مهمتهم العمل في سبيل التقارب. ولكن لهجة عروضهم لم ترق حاكم بغداد فرفض أي نوع من التسوية. واشترط قبل سماع أي شيء أن يقبل سعود الخضوع للسيد الكبير[1].

وامتعض قائد الوهابيين من هذا الرفض، وقرر التأهب لحملة جديدة. وباشر استعداداً ضخماً في الدرعية في نيسان عام ١٨٠٨. وظل القصد من الاستعداد مجهولاً لمدة طويلة قبل أن تعلم بغداد أنه موجه ضدها.

وأثناء هذه الاستعدادات لحق بالوهابيين انكسار في وسط بلادهم، فقد ثارت قرين، وهي قرية تقع على شاطئ البحر وعلى بعد أربعة أيام من البصرة. ورفض العتوب الذين يسكنون هذه القرية أن يدفعوا لسعود الخراج الذي كان قد فرضه عليهم. فأرسل أربعة آلاف رجل لإخضاعهم ولكنهم ارتدّوا في حزيران من سنة ١٨٠٨

خاسرين. وكان نصر قرين يعود لهمة حاكم القرية عبد الله بن سالم. وقد خلع عليه سليمان باشا رداء وقدم له الهدايا مكافأة على ما فعل.

ولم تكن هذه الخسارة الوحيدة التي لحقت بالوهابيين، فقد بدأت الخلافات الداخلية تدب بينهم. وقامت تلك الخلافات بصورة خاصة بين الجربس وبين قبيلة أخرى تخضع للوهابيين. واشتعلت ثورة في الزبارة لم يخضعها سعود إلا بمشقة. وأخيراً فقد كان الجفاف مستفحلاً في أراضي الجزيرة العربية منذ بضع سنين. فجفت الآبار وارتفع سعر الطحين فبيعت مثلاً أربع وعشرون أقة منه بأكثر من سبعة وعشرين قرشاً. ولم تكن المجاعة النتيجة السيئة الوحيدة لهذا الجفاف، فقد رافقتها الأمراض والأوبئة فقضت على الكثير من السكان.

لم يوقف سعود غاراته بالرغم من كل هذه المعاكسات. فتوجهت فرقة مكونة من ثلاثة آلاف وخمسمائة وهابي لغزو الإمام الحسين بينما كان سعود يتوجه نحو بغداد على رأس جيش عديد، قدر بخمسة وأربعين ألف رجل. وباشر الجيش بالاستيلاء على جميع القرى عبر الفرات.

وكان سليمان باشا قد عاد في ذلك الحين إلى بغداد بعد انتصاره على عبد الرحمن باشا. فلم يتمتع طويلاً بهذا النصر لأن تقدم الوهابيين شغله كما شغل جميع أهالي بغداد. وكان الخوف عاماً في المدينة فأقفلت الأسواق وصدرت الأوامر إلى الإنكشارية وإلى التجار الأتراك بالتسلح والانضمام إلى جيش سليمان باشا.

واستولى الوهابيون أثناء ذلك سلمياً على شفاثا، وهي قرية تبعد

ثمانية أميال عن كربلاء، وأرسلوا مؤازرة للفرقة التي كانت تحاصر الإمام الحسين. وفي الوقت نفسه حاصروا هندية وعين سعيد. ولحماية هندية، دخل قائمقام سليمان باشا كربلاء مع مقدمة جيشه، ثم وافاه إليها الكيخيا وغيره من أعوان الحاكم. وفي معركتين مع الوهابيين نجحوا في صد هجوم هؤلاء. ووصل سليمان باشا إلى كربلاء ولحق به الإنكشارية والتجار الأتراك في بغداد. فلما شعر الوهابيون بالخطر، رفعوا الحصار عن هندية. وطاردهم الكيخيا حتى شفاثا وأجبرهم على ترك القرية. وأراد سليمان باشا وقاية تلك القرية من غزو الوهابيين في المستقبل فحفر فيها ثلاث آبار أحاطها بالأسوار. وكان يرغب بالعفو عن شيخ القرية، ولكن هذا الأخير أصر على بقائه وهابياً، فأمر بإعدامه. ورجع سليمان باشا إلى بغداد منتصراً في ١٥ آب عام ١٨٠٨ بعد أن اكتفى بوجوده في المعركة ليهزم عدواً ظن الناس أنه لا يقهر.

هكذا فشلت آخر محاولات سعود ضد بغداد. وبالرغم من الفشل فإن اسم هذا القائد واسم الوهابيين ظلا يبعثان الرعب في تلك المدينة. وعلة انتشار الرعب لهذه الدرجة معروفة، فالطريقة التي كان يتبعها الوهابيون في القتال وعاداتهم الحربية كانت تجعلهم خطرين حتى على من يهزمهم. وهذا ما أمكن ملاحظته تكراراً خلال روايتنا هذه. ومن جهة أخرى فإن الشقاق الذي ظهر عندئذ في باشوية بغداد جعل الوهابيين أكثر خطراً على سكانها، لانقسام قوة هؤلاء السكان، ولوجود بعض الثائرين بينهم الذين كان الوهابيون يعرفون طرق استغلالهم.

كانت حملة بغداد أهم حدث في تاريخ الوهابيين في عام ١٨٠٨. أما في عام ١٨٠٩ فإنهم لم يقوموا بأي نشاط يذكر. واكتفوا

خلال ذلك العام ببعض الغارات على بادية الشام، لم تكن ذات أهمية. وقد امتازت قبيلة بني ظفير في هذه الغارات، إذ اغتنمت فرصة تدني مستوى الفرات للانتشار في الجزيرة، والقيام بنشاطات كثيرة.

إلاَّ أن تاريخ الوهابيين في عام ١٨٠٩ امتاز بصورة خاصة بنتائج القتال الذي دار بين العرب القواسم من جهة وإمام مسقط من جهة أخرى. وقد رأينا في الفصل الثاني عشر كيف نشب هذا القتال إثر الخلافات التي وقعت ضمن عائلة إمام مسقط. فبعد أن طرد الإمام الحالي بدر، لجأ هذا الأخير إلى رأس الخيمة. وحاول إمام مسقط محاولة أولى لم توفق ضد تلك المدينة. وركب القواسم الغرور لتلك النتيجة فلم يتركوا لقرصنتهم حدوداً. واستطاعوا القضاء على أسطول صغير كانت المدن الساحلية على الخليج الفارسي قد عززت به مراكب مسقط. ومنذ ذلك الحين زاد ارهاب قراصنتهم في الخليج الفارسي، فلم ينج منهم أي مركب. واهتموا بصورة خاصة بمحاربة البريطانيين لأن مراكبهم كانت أغناها، وفيها كانوا يجدون أفضل الأسلحة وأفضل مدفعية. وهكذا أصبحت الحرب متواصلة بما فيها من نجاح حيناً وفشل حيناً آخر، ووقع «مينرف» بين أيديهم، وهو مركب بريطاني كان قد غادر بومباي متجهاً إلى البصرة، قدرت قيمة حمولته بأكثر من مائة ألف روبية. واستولوا كذلك على عدة سفن أخرى، كانت إحداها تخص حاكم أبي شهر. وإن كانت هذه السفن تجارية، فإن القواسم هاجموا كذلك المراكب الحربية، ومنها مركب بريطاني يحمل ستة عشر مدفعاً ويقوده الكابتن كي، لم يستطع المقاومة، فوجد نفسه أمام أحد أمرين: إما حرق نفسه أو التسليم، ففضل الخيار الأول. وكانت السفن الحربية البريطانية تتجول في الخليج الفارسي طوال تلك المدة فقامت بعدة

هجمات موفقة على مراكب القواسم. وقطرت بعضها إلى بومباي، وحكم بالإعدام على جميع من فيها مقابل ما كان يفعله القواسم. ولكن الرغبة في التخفيف من حدة حرب كادت تقضي على التجارة في الخليج، جعلت البريطانيين يعفون عن البحارة قبيل الإعدام. ولم يأت هذا العفو بالنتيجة المرجوة، إذ إن القواسم وجدوا أنفسهم مرعبين فأصبحوا أكثر ضراوة، وساهم في زيادة قساوتهم التدبير الذي كان القصد منه تلطيفهم، فأعدموا جميع من وقع بين أيديهم.

وهكذا أصبحت قوة هؤلاء مخيفة لدرجة لم تترك لدى أعدائهم سوى الاختيار بين الموت أو الانتحار. وهذا اختيار قاس بالنسبة لمراكب حربية، وأكثر من ذلك بالنسبة لمراكب تجارية، لأن الموت العنيف غريب عن الأعمال التجارية. وهذا ما قاد إلى توقف التجارة في الخليج. وإثر هذا التوقف ازداد القراصنة شراسة فعملوا على زيادة ثرواتهم بأسلاب جديدة كل يوم.

وللتعويض عن ذلك بشكل أفضل قرروا الهجوم مرة ثانية على مسقط. وجهزوا لهذه الغاية أسطولاً كبيراً. وشجعهم ما لاقوه من نجاح في الهجوم على مراكب متفرقة، على أن يقرروا الهجوم على المراكب البريطانية اللاجئة في ميناء العدو.

وكان البريطانيون قد ملوا مضايقات القواسم وأصبحوا يفتشون عن وسيلة للتخلص منهم نهائياً. فصدرت الأوامر إلى مجموعة بريطانية بالانضمام إلى المراكب التي جهزها إمام مسقط. وتم إعداد المجموعتين للدخول في العمليات في أواخر عام ١٨٠٩. فخرجت المراكب من الميناء تفتش عن القواسم على الشواطئ، والتقت بهم

يوم عيد الأضحى في ٩ تشرين الثاني عام ١٨٠٩، وهزمتهم هزيمة كاملة. وغرق في ذلك اليوم مائة وعشرون مركباً من مراكب القواسم، مع ما عليها من عدة ورجال. وأسرت المراكب الباقية، فلم يستطع الهرب سوى عدد قليل منها، التجأ بالقرب من رأس الخيمة. ولحق بهم البريطانيون فحاصروا الموقع وضربوه وضربوا المدينة الواقعة تحت الحصن وأحرقوها، كما أحرقوا مخازن الأخشاب التي كانت تستعمل لبناء المراكب. ووقع الحصن أخيراً في يد البريطانيين، فرجعوا إلى مسقط ومعهم ألف وستمائة أسير وعدد كبير من المراكب.

هكذا كانت نتيجة الحملة التي سددت للقواسم ضربة يبدو أنه من الصعب النهوض منها بعد اليوم. وكان هؤلاء يشكلون خطراً على إمام مسقط طوال مدة تسلطهم على رأس الخيمة. وقد وجد البريطانيون ضرورة انتزاع الموقع منهم فلم يوفّروا أي تدبير لتحقيق ذلك، ولم يغادروا رأس الخيمة ويتجهوا إلى مسقط إلا بعد أن تركوا حامية كبيرة في الحصن.

الهوامش

(١) لم تكن هذه محاولة سعود الأولى في هذا المجال. فقد سبق أن طلب في عام ١٨٠٦ من السيد مانستي المقيم البريطاني في البصرة أن يتوسط بينه وبين سليمان باشا حاكم بغداد لعقد الصلح. ولم يوافق السيد مانستي على اجراء أي اتصال قبل أن يحصل من سعود ومن الشيخ حسين وغيرهما من كبار رؤساء الوهابيين على إعلام موقع يبينون فيه رغبتهم بالصلح والشروط التي يشترطون للتحالف مع سليمان باشا. ولدى تسليم هذا الإعلام إلى سليمان باشا، أجاب أنه سيعرضه على السيد الكبير وينتظر أوامره. ولم تؤد هذه الاتصالات إلى أية نتيجة، كما لم تؤد العروض التي لحقتها والتي قدمها سعود لهذه الغاية. ولا شك بأن كافة عروض الصلح هذه لم تكن تهدف إلا إلى إشغال العثمانيين وإعمائهم عن توسع الوهابيين وإطفاء حقدهم وحملهم بالتدرج على الانضمام إليهم (حاشية المؤلف).

الفصل الرابع عشر

آراء في الوهابيين

كانت سورية ومصر والولايات الجنوبية من آسيا الصغرى أول مسرح لفتوحات العرب. ففي تلك المناطق بدأ الإسلام، وتمكنت جذوره، وفيها ما زال يعد أكثر أتباعه حماسة. وكلما ابتعدنا عن الآستانة واقتربنا نحو الجنوب أي نحو دمشق وحدود الجزيرة العربية، لاحظنا زيادة في التمسك بالدين. ويزداد هذا التمسك مع حرارة الإقليم ومع القرب من الصحراء حيث طبيعة الأرض والحرارة تتشابه مع مناخ الجزيرة العربية.

وقد لاحظ هذا الأمر العديد من الأجانب، ومن السهل معرفة أسبابه. فقد بدأ انتشار الإسلام في الجزيرة العربية، لذلك فهو يجد أتباعه المتحمسين في مصر وسورية والولايات التركية الجنوبية. وبالفعل فإنه يتلاقى في تلك المناطق بالأخلاق والطباع، التي تتولد عن الطبيعة.

وهكذا فإن جنوب السلطنة العثمانية هو مركز الحكم الإسلامي الرئيسي. وإذا عم هذا الحكم في الشمال كذلك، فإن السلطة التي يتمتع بها لا يمكن أن تستمر من دون دعمها بما لها من سلطان في الولايات الجنوبية. وقد لاحظ الشرقيون أنفسهم هذه الملاحظة فأوجدوا خطاً يمتد من رودس إلى ستاليا إلى ماردين، يقسم السلطنة العثمانية إلى شطرين غير متساويين، أحدهما مكتظ بالسكان، ولكن مساحته تقل عن مساحة الشطر الآخر، على ما فيه من صحارى واسعة مقفرة، لا تضم إلا القليل من السكان. ويقطن العرب جنوب هذا الخط الوهمي، ويقطن شماله الأتراك وقد تسلط الشعب العربي بديانته على حكامه.

ويمكن من هذه الملاحظة استنتاج أمرين هامين. الأول هو أن استمرار حال المسلمين كما هيَ، يتطلب الاحتفاظ بمصر وسورية والولايات الجنوبية من السلطنة العثمانية. فإذا تم احتلال هذه الولايات من قبل الوهابيين، أدى انتشار الوهابية إلى كل مكان.

ومن جهة أخرى فإن الصلة بين مناخ الولايات الجنوبية وبين آسيا الصغرى، ومناخ الجزيرة العربية يمكن أن تجعلنا نقدّر باطلاعنا على طباع وعادات سكان هذه الولايات ما يمكن أن ينتقل منها إلى الوهابيين، لما سيمليه المناخ من حاجة. وهذا الاعتبار تزيد أهميته كلما زاد تأثير الوهابيين وهدد آسيا بفتح قريب.

وليس المناخ وحده الذي سيعمل على هذا التقارب. فالمصلح (الوهابي) قد أعاد إلى الدين بساطته الأولى بإزالته كافة ما دخل عليه من شوائب ومن استغلال. لذلك ظلت تعاليم النبي محمد

التي آمن بها المسلمون متبعة لدى المصلحين، وهذا ما يحفظ لهم تأثيرهم على الشعب العربي والشعب التركي على السواء.

وهكذا يمكن تقدير الطابع السياسي الذي سيظهر لدى الوهابيين بعد احتلالهم آسيا الصغرى، بالرجوع إلى ما كان عليه وضع العرب أيام فتوحاتهم. كما يمكن أيضاً تقدير الطابع الأخلاقي لهذا الشعب الجديد بالرجوع إلى الطباع والعادات الأخلاقية للمسلمين الذين يقطنون حالياً مصر وسورية، وإن كانت هذه الطباع والعادات تذبل تحت الحكم المستبد. ولكن الاستبداد هنا هو كذلك نتيجة طبيعية لطابع المناخ، وللبلاد المتسعة والمعرضة لغارات خارجية، بحيث لا يمكن الاحتفاظ بها بعد فتحها إلا بالاستبداد. وها قد اقترب الوهابيون من هذا النوع من الحكم. وطالما ظلت القبائل العربية المجتمعة في ظل القانون الجديد، قليلة العدد، احتفظت في اتحادها بطابع الحكم القبلي الذي كان سارياً لديها. ولكن عندما تعددت هذه القبائل أصبح حكمها أضيق من حيث إن عدد الحكام ظل كما هو، فبدا قليلاً بالنسبة لعدد المحكومين. وهكذا مال هذا الحكم نحو الاستبداد، وهو يقترب منه أكثر فأكثر كل يوم. وسيصبح استبدادياً خالصاً يوم يتوسع الوهابيون بفتوحاتهم عبر الصحراء التي تفصلهم عن مصر وعن آسيا الصغرى. وهكذا فإن الوهابيين لن يخضعوا شعوباً جديدة إلا بعد إخضاع أنفسهم، بحيث تبقى أولى نتائج فتوحاتهم فقدانهم حريتهم.

أسباب ثلاثة ستجتمع إذاً لتعطي الوهابيين الطابع السياسي لعرب القرون الوسطى، لتقرب طباعهم الخلقية من طباع المسلمين الذين يقطنون اليوم مصر وسورية. وهذه الأسباب هي المناخ والدين والحكومة. فدراسة الشعب في مصر وسورية إذن لها أهمية مزدوجة

من حيث معرفة هذين الشعبين من جهة، وتقدير ما سيكون عليه الشعب الجديد من جهة أخرى.

المراجع

ــ **دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء**، الشيخ رسول الكركوكلي ــ نقله عن التركية موسى كاظم نورس، طبع دار الكاتب العربي بيروت.

ــ **رحلة المنشئ البغدادي**، (نقلها عن الفارسية عباس العزاوي ــ بغداد ١٩٤٨).

ــ **تاريخ الشيعة**: محمد حسين المطفري.

ــ **تاريخ الشرق العربي والخلافة العثمانية**، محمد ضياء الدين.

ــ **عنوان المجد في تاريخ نجد**، ابن بشر.

ــ **تاريخ نجد**، ابن غنام.

ــ **مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داوود**، عثمان ابن سند.

ــ **عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد**، إبراهيم الحيدري.

ــ **تاريخ الأحساء**، محمد آل عبد القادر الأحسائي.

ـ **تاريخ وهابية (تركي)**، أيوب صبري.
ـ **جهان نامة الحاجي خليفة**، كاتب حلبي.
ـ **كشف الارتياب في أتباع محمد بن عبد الوهاب**، محسن عبد الكريم الأمين.